الخضر

وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إلاَّ قليلاً

لك اللهُ يا موسى ، حين تفْنِي جُهودَك ، فلا تدرى أتوجهها إلى فرعون ؟ أم توجهها إلى قومك بنى إسرائيل ، أم توجهها إلى قارون وأمثاله من هؤلاء المفترين ؟ أم تجمع نفسك ، لتتجه إلى ربك ، تستعينه وتستهديه فى تأدية رسالتك ونشر دينك ؟ أم تتجه إلى ربك تحمده على أن أكرمك ، حين نصرك على عدوك !

* * *

ولـكن ! أترى يا موسى أَخَذتك نَشْوةُ الانتصار ، وشعشعك إكرام الله ، يوم وقفت تخطب وتعِظُ ، وتبين للناس معالم الدين ، وتفسر التوراة !

ويوم أن غمرت السامعين بروْعة علمك ، وفصاحة بيانك ، حتى سألوك :

هل فى الناس يا موسى من هو أعلم منك ؟ وسرى فى نفسك ما يسرى فى طبيعة البشر ، وحسبت أنك شيخ الأنبياء ، وكليمُ الله ، وأنك صِهر شعيب ، وأنك ربيب القصور ، وأنك مُغرِقُ فرعون ، وأنك غالب السَّحرة ، وأنك مُفَجِّر الماء من الصخرة ، وأنك فالق البحر ، وأنك صاحب التوراة ، وأنك تغْترف من بحر علم الله !

* * *

ولـكن الله سبحانه ، أوحى إليك ، أن بحر علمك يا موسى ، قطْرةٌ من بحر علم المقرَّبين وأن من عبادى ، عبداً صالحاً تلقاه ، عند مجمع بحر الروم وبحر فارس ، فيما يلى الشرق ، وقد آتيناه من لدُنَّا علما !

وموسى ، الذى يرى أنه المحظِيُّ عند ربه ، الأثير لديه دون أنبيائه ، لابد أن يلقى هذا العبد الصالح ، ويرحل فى طلبه ، ويسعى لصحبته ، ويلتمس من علمه ، حتى لو أمضى حِقْبةً أو حِقَباً من الزمان .

* * *

وإذ قال موسى لفتاه ، لا أبْرَحُ حتى أبلغ مجمع البحرين ، أو أمْضِيَ حُقُبا . وأوصى الفتى ، أن يأخذ غداءهما ، حوتا من حيتان البحر ، فى مِقْطف أو مِكْتل . وسارا إلى الشرق ، ودائما يرحلُ إلى الشرق ، ويقتبس النور من الشرق ، فالشرق منزل الوحى ومنبع الأديان ، ومسقط الرسالات ، وحقل الروحانيات .

وسارا حتى كدَّهما السير ، وأضناهما الارتحال ، فناما على صخرة ، فى ظل شجرة ، على شاطىء البحر ، ونزل المطر ، فبلل الحوت ، فصحا وقفز إلى البحر ، وهما لا يشعران .

فلما بلغا مجمع بينهما ، نسيا حوتهما ، فاتخذ سبيله فى البحر سَرَبا .

وتابعا السير ، حتى وقفا على البحرين ، وماذا هناك ؟ إلا أن يرى قدرة ربنا سبحانه ، ويسرح فى تأملاته ، ويسبح فى صلواته ، ويتيه فى ملكوت رب العالمين .

وهو الذى مَرَج البحرين ، هذا عذبٌ فُراتٌ سائغ شرابُه ، وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ومِنْ كل تأكلون لحما طريا ، وتستخرجون حِلْيةً تلبسونها ، وترى الفُلْكَ مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون .

ولعل لله حكمة ، فى أن جعل موعد لقائهما عند مجمع البحرين ، حتى يشبع

نفسه من تمجيد الله فى جلاله ، وحتى يغسل ما علق فى نفسه من زَهْوٍ فى نسماته وحتى يعود إلى العبد الصالح وقد خلص من كل مظاهر الحياة ، إلا من الماء ، وهو أصل الحياة .

وجعلنا من الماء كل شىء حى

* * *

فلما جاوزا ، قال لفتاه : آتنا غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نَصَباً .

قال : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ؟ فإنى نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا .

* * *

وأنصت موسى إلى نفسه ، وعجب من أمر الفتى والحوت ، وكيف يحيا الحوت وهو فى المكتل ! ثم يقفز إلى البحر ؟ فيعود إلى الماء ، وكيف ينسى الفتى هذا الحوت الكبير . ولا يحس بالمكتل ، وهو يحس ثقله وفيه حوت ، وخفة وزنه حين خلا من الحوت ؟

ويا ترى ! أيكون الشيطان إبليس فى أثرى ، حتى وأنا فى هذه الرحلة ! لعل سرا من أسرار الله ، فى ذلك المكان ، الذى نمنا فيه ، على صخرة ، تحت الشجرة ، ولعل موعدنا مع العبد الصالح هناك ولا ندرى !

عُدْ بنا يا فتى إلى حيث كنا ، وإياك أن تنيه فى عودتنا ، فها هى ذى آثار أقدامنا ، فلنقصصها ، حتى تهدينا إلى الصخرة المباركة .

* * *

فوجدا عبدا من عبادنا ، آتيناه رحمة من عندنا ، وعلَّمناه من لَدُنَّا علما .

وما كان العبد الصالح ، إلا شيخا نحيلا ، طوى جسمه الناحل فى ردائه ،

فجعل بعضه تحت رأسه ، وغطى جسمه ببعضه ، فى هذا العراء الذى لا نهاية له ، وفى هذه النَّوْمة الهادئة ، على شاطىء ماء لا حدَّ له ، وفى هذه الوحدة الموحشة ، التى لا مؤنس فيها ، إلا الإغراق فى بحر علم الله .

ومال عليه موسى ، فصحا الشيخ من هدأته ، وسلَّم موسى فسلَّم ، وقدَّم نفسه إليه فعرف ، وعرض عليه أن يتتلمذ عليه ، فتأبَّى عليه ، واستوسع علمَه على موسى ، وبيَّن له أن بحر علم الظاهر ، لا يساوى قطرةً من بحر علم الباطن .

وشرح له أن علمك ياموسى ، الذى زَهَتْ به نفسُك ، تبتدىء به عند مرحلةٍ أعلى من إحاطتك ، وطاقةٍ أقوى من طاقتك ، وصبر أصبر مما تحسه فى نفسك .

قال له موسى : هل أَتَّبِعُك ، على أنْ تعلمنى مما عُلِّمتَ رُشْدا ؟

قال : إنك لن تستطيع مَعِىَ صبرا ، وكيف تصبر على مالم تُحِطْ به خُبرا ؟

* * *

وموسى فى سبيل الله ، والوصول إلى الله ، لا يغضب من الشيخ ، ولا ينفر من تَهْوِينه ، ولا ييأس من تصْعِيبه ، ويُبْدى استعداده وتلهُّفه على علم جديد ، فوق ما كان يظن أنه قد عَلِم ، وأتَمَّ العِلم .

ويقول : ستجدنى إن شاء الله صابرا ، ولا أعصِى لك أمرا .

ولأمرٍ ما يا تُرى ، اشترط العبدُ الصالح على موسى ، أن يصبر ، وألا يتعجل ؟ أكان ذلك ، لما فى طبيعة الإنسان من اللهفة على استيضاح المُبْهم ،

وتفسير المستغلق ، وحَذَرِ النفس ، وقلقِها مما تكنُّه أستار الغيب تدفعها إلى ذلك غريزة حب الاستطلاع ؟

* * *

فقد يرى الإنسان ظاهرةً من ظواهر الكون ، فلا يفهم ، فيسارع إلى السؤال والاستفسار ، فإن لم يجد من يسبقه بالتوضيح ، وضَّح لنفسه ، ثم يحكم بما يحكم ، وهو لا يدرى ، إن كان على هدًى ، أو كان فى ضلال مبين .

* * *

قال العبد الصالح : فإن اتَّبعتَنى ، فلا تسألنِى عن شىء ، حتى أُحْدِثَ لك منه ذِكْراً .

فانطلقا ، حتى إذا ركبا فى السفينة ، خرقها العبدُ الصالح .

فتلفَّت موسى إلى أصحاب السفينة ، وإلى أستاذه الشيخ ، وعجب من فعله ، وركاب البحر يخافون الغَرَق ، ويرُمُّون كل خرقٍ فى سفينتهم ، فما بال هذا الشيخ يعكس الآية ، ويخرق السفينة ؟

لا بد أنه يود أن يُغرق أهلها ، ويغرقنا معهم ، وهذه الحياة ، لا يُغَامِرُ بها إنسان ، فماذا بعد أن يُغرقنا هذا الشيخ الذى عاهدنى على ألا أتعجَّل ، وألا أسأل ؟

* * *

فمال موسى يهمس فى أذن أستاذه ، وقد تخطَّى حدود المعاهدة التى عقداها عند الصخرة ، وقال له : أخرقتَها لتُغْرِق أهلها ؟ لقد جئْتَ شيئاً إمْرا .

فاستدار الشيخ إليه ، فى هدْأة العالِم ، يحْنُو على تلميذه ، يذكِّره بمعاهدته ،

ويزجره على نقض عهده ، وقال له : ألم أقلْ : إنك لن تستطيع معى صبراً ؟

وخجِل موسى ، واعتذر من فعله ، واعتَلَّ بنسيانه ، واستغفر من ذنبه ، وتوقّع أن يَحِيقَ به شرٌّ من مخالفة هذا الشيخ الخطير . وقال : لا تؤاخذْنى بما نسيت ولا تُرْهِقْنى من أمرى عسراً !

* * *

فانطلقا ، حتى إذا لَقِيَا غلاماً ، فقتله العبدُ الصالح .

فانزعج موسى لهـــذه الجناية ، جناية قتل غلام جميل ناضِرٍ برىء ، لم يُجْرِمْ ولم يُسِئْ إلى أحد ، وماذا يكون جزاؤُنا من أهله إنْ أدركونا ؟

وأين هذه الجناية من دين موسى ، الذى يُحرّمها ، ويتوعد القاتلين بالقتل وبغضب الله ؟

ولم يستطعْ موسى صبراً على أستاذه ، مهما كان يُجِلُّه ويجامله ، واستفهم استفهاماً إنكارياً : أقتلتَ نفساً زكيّةً بغير نفس ؟ لقد جئتَ شيئاً نُكْراً !

فاستدار الشيخ إليه ، فى هدْأةِ الحلماء الحكماء ، حين لا يَضيقون بتلاميذ متسرّعين ، ولا بمُريدين حَمْقى ، وذكّره بمعاهدته ، وقال :

ألم أقلْ لك : إنك لن تستطيع مَعِىَ صبراً ؟

وثاب موسى إلى رُشده ، وارتد إلى عهده ، وحاسب نفسه ، وتذكّر أن هذه هى الثانية . وأن الأولى لك ، والثانية محسوبةٌ عليك .

وما هذا بالمنهج المُرْضِى ، ولا الأسلوب المقبول ، أن تُنْقَض العهود ، وأن تُنْسى المواثيق ، وما هذا بأدب التَّلَقِّى ، ولا هو بسلوك المريدين !

* * *

فلم يرض عن نفسه ، وتضاءل بين يدى أستاذه ، وطيب خاطره ، وفرض فرضاً جديداً ، وبنْداً شديداً فى بُنود معاهدته ، وقال : إنْ سألتُك عن شىء بعدها ، فلا تصاحبْنى ، قد بَلَغْتَ من لَدُنِّى عُذراً !

* * *

فانطلقا ، حتى إذا أتيا أهلَ قريةٍ ، استطعما أهلها ، فأبوا أن يُضَيِّفُوهُما .

فاشمأزَّتْ نفسُ موسى من هذا الشُّحِّ البادى على أهلها ، وهمَّ أن يُنَدِّد بهم . ويَتَنَقَّصهم ، ويخْدِش كرامتهم .

ولكنه لمَّ نفسه ، وكمَّ فمه ، وكظم غيظه ، فهو منذ قريب ، قد أحْرج نفسه ، فضاقت دائرة الاعتذار عليه .

ثم سارا ، فوجدا فى هذه القرية جداراً مائلا ، يريد أن ينقضَّ ، فيقع متهدما . فأخذ العبد الصالح يُقيمه ، ويدعِّمه ويسنِّده ، وقضى فى ذلك وقتا ، وبذل جهداً ، واستحق على ذلك شكراً وأجراً ، ولم يتقدم أحد بأجر ولا بشكر .

ويمضى الشيخ مطمئن النفس ، مرتاح الضمير ويعجب موسى ، وينفد صبْرُه ، ولم تبق فيه طاقة . أن يسكت على ما يرى من أمر الشيخ ، وفعله المعروف فى قريةٍ كزَّة ، لا يستحق أهلها سلاما ولا كلاما ولا اهتماما :

وقال فى أدب وتواضع ، ليس فيه عتاب ولا ملام : لو شِئْتَ ، لاتخذت عليه أجراً . ولطالبْتَ هؤلاء الناس بجزاء ما أسلفت من معروف :

فاستدار إليه الشيخ ، فى حزم وعزم ، كمن يأخذ المخالف بمخالفته ، والمعاهد

بمعاهدته ، والفاعل باعترافه ، وقال : هذا فِراقُ بَيني و بينك ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً .

* * *

اسمعْ ياموسى . أما السفينة ، فكانت لمساكين ، يعملون فى البحر ، فأردتُ أن أَعِيبَها ، وكان وراءهم ملك ، يأخذ كل سفينةٍ غَصْبا .

وأما الغلام ، فكان أبواه مؤمنيْن ، فخشِينا أن يُرْهقهما طُغياناً وكُفرا ، فأردنا ، أن يُبْدِلَهما ربُّهما خيراً منه ، زَكاةً ، وأقربَ رُحْما .

وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة ، وكان تحته كنزٌ لهما ، وكان أبوهما صالحاً ، فأراد ربُّك أن يبلغا أشُدَّهما ، ويستخرجا كنزهما ، رحمةً من ربك ، وما فعلْتُه عن أمرى ، ذلك تأويلُ ما لم تسْطِعْ عليه صبراً .

فأين علمُك الظاهرُ يا موسى ، من علم أستاذك الباطن ؟

خذ من الخضر ، وابدأْ من جديد ، تتعلمْ من المهد إلى اللحد .

وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .

طالوت

ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف ، حَذَرَ الموت ، فقال لهم الله : موتوا ، ثم أحياهم ، إنَّ الله لذو فضلٍ على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون .

* * *

كثيرٌ وكثيرٌ من الناس ، رُكِّب فى طبيعتهم ، أن يتعلقوا بالدنيا ، ويتكالبوا عليها ، وتمتد بهم الآمال ، وتتشعَّب عليهم الأهداف ، فيتشبَّثوا بالحياة ، ويحذرون الموت ، ويخافون ويهْلَعُون ، وتنخلع قلوبهم من خشيته ، قبل أن يُحققوا ما علَّقوا على الحياة من آمال .

* * *

فمن المرض يحذَرون ، ومن الزَّحمة ، ومن العدْوى ، ومن ركوب البحر ، ومن الطيران ، ومن الحروب ، ومن الزلازل ، بل ومن وسوسة الشيطان ، ومن كل أولئك يحذَرون الموت .

وكما يقال : الناس من خوف الفقر فى الفقر ، ومن خوف الذل فى الذل ، كذلك يعيش بعض الناس من خوف الموت فى الموت .

* * *

والموت أقسى الدّواهى ، وهو إنهاء الحياة ، وهو فناء ، وما بعد الفناء فى علم الله ، ولكل حىٍّ عذرٌ فى أن يرْهبَه ويخشاه .

ولكن أين الاستسلام والتسليم لقضاء الله ؟ وهو سرٌّ احتفظ به الله ، وهو محجوبٌ فى أستار الغيب ، وليس ينفع حذرٌ من قَدَر ، وإذنْ فلا داعى للهلع ، ولا للتَّوَقِّى ، فليس ذلك بمطوِّل فى عمر ، ولا بمؤخر لأجل .

إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

* * *

فلا الحرب تقرِّب منه ، ولا التقاعُس ، أو الاعتصام فى بُرْج يُباعد عنه .. قلْ لو كنتم فى بيوتكم ، لبرز الذين كُتِبَ عليهم القتلُ إلى مضاجعهم . أينما تكونوا يُدْرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مُشَيَّدة .

فإذا كان هذا كذلك ، فلِمَ خرج هؤلاء الناس ، ألوفا مؤلفة ، هاربين من بيوتهم ، تاركين وطنهم ، خائفين حذِرين من الموت أن يُدركهم ، وهم يظنون أنهم ناجون ؟ ويخيّل إليهم أنهم تركوه وراءهم ، وأنه سوف لا يدركهم ، ولكن قضاء الله أدركهم ، فقال لهم الله : موتوا .

إنما أمره إذا أراد شيئاً ، أن يقول له : كن ، فيكون ، فماتوا ميتةَ رجلٍ واحد ، فترةً من الزمان ، طال عمرها أم قصر ، ورآهم الناس أنهم ماتوا ، ولا أمل فى رجعتهم ، وقطعوا الرجاء فى حياتهم .

ثم أحياهم الله من جديد ، أعاد إليهم أرواحهم ، كما يستيقظون من نومهم .

وليس هذا بعزيز على قدرة الله ، الله الذى يتوفَّى الأنفس ، حين موتها ، والتى لم تَمُتْ فى منامِها ، فيُمْسك التى قضى عليها الموت ، ويُرسل الأخرى إلى أجلٍ مُسَمًّى .

* * *

وعيسى ، أخرج الموتى بإذن الله ، وفى مستشفى الولادة فى بولاق ، عادت الحياة ، إلى زوجة البواب ، بعد أن ماتت ساعات ، وهمُّوا بدفنها ، إن الله لذو فضل على الناس ، ولـكن أكثر الناس لا يشكرون .

* * *

هذه واحدة ، ألَّا نَحْذَرَ الموت ، ولا نخشاه ، فهو فى غيب الله ، ولا ندرى متى يلقانا ، أو نلقاه .

وأخرى ، ألا نبخل على الله ، وأن نُقْرض الله ، فنقدِّم ما يرضاه ، قرضاً حسناً خالصاً لوجهه ، وفى سبيله ، لا نرجو به عِوَضا ، ولا نعلِّق عليه ثمنا ، كأننا نشترى به علو المنزلة ، أو سعة الرزق ، أو صكاً ندخل به الجنة .

* * *

وشتان ما بين قرضٍ حسن ، وقرضٍ بالربا والفائدة ، من توقُّع نماء فى مال ، أو حُسْن سيرة ، أو زَهْوٍ ورياء .

وفضل هذا على ذاك ، أن الله وعد بمضاعفة الثواب ، أضعافاً مضاعفة وهو القادر على أن يقبض يده ، ويمنع فضله عن المرابين ، ويعم خيره على المحسنين .

إنْ تُقْرِضوا الله قرضاً حسناً ، يضاعفْه لكم ، ويغفر لكم .

من ذا الذى يُقرض الله قرضاً حَسَناً ، فيُضاعِفَه له أضعافاً كثيرة ، والله يقبِض ويَبْسُط ، وإليه تُرجعون .

* * *

بهذه الأولى : ألا نحذَر الموت ، وبهذه الأخرى : ألا نبخل ، وأن نضحى فى سبيل الله ، قدَّم الله لقصَّة جماعة من بنى إسرائيل ، جُبناء أَشحَّاء .

ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل ، من بعد موسى ، إذ قالوا : لنبىٍّ لهم ، ابعثْ لنا مَلِكاً ، نُقاتلْ فى سبيل الله .

قال : هل عَسَيتُم إنْ كُتِب عليكم القتالُ ألا تُقاتلوا ؟

قالوا : وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله ؟ وقد أُخرِجْنا من ديارِنا وأبنائِنا ؟ فلما كُتِب عليهم القتالُ ، تولَّوْا ، إلا قليلا منهم ، والله عليمٌ بالظالمين .

* * *

يا لَهُم ! ويا وَيْلَهُمْ ! بنو إسرائيل ، لا يُحسُّون بغضب الله ، إلا بعد أن يقعوا فِعْلًا فى غضب الله ! ولا يُدركون فضل الله ، إلا حين يُسْلَبُون فضلَ الله !

والله يوصى عباده ، أن يحفظوا عليهم نِعَمَه بطاعته وشكره ، ليزيدهم . ويحذِّرُهم كُفرانه وجحوده ، والتردِّى فى المعاصى ، حتى لا يسْلُبَهم .

لَئِنْ شكرتم ، لَأَزيدنَّكم ، ولئن كفرتم ، إنَّ عذابى لشديد .

* * *

بنو إسرائيل ، كانوا قد حَبَاهم الله ، بركةً وقوة ، وعزْما شديداً ، وبأساً على أعدائهم ، ونصراً مؤَزَّراً فى حروبهم ، حين كانوا يُقدِّمون التابوت فى مقدمة جيوشهم .

ذلك التابوت ، صندوق فيه التَّوْراة ، كتاب الله الذى أنزله على موسى . وكانوا يقدسونه ، ويؤمنون به ، ويلتزمون شريعته ، ويتقون الله فى حدوده .

ومن يتَّق الله يجعلْ له مخرجا ، ومن يتَّق الله يجعلْ له من أمره يسراً .

فكانوا بالتابوت يسعدون ، وينتصرون ، ويغلبون ، ويرهبهم أعداؤهم ويفرون .

ولكنهم فسقوا وفسدوا ، وأغضبوا الله ، ونسوه فنسيهم ، وحملوا التابوت والتوراة ، ويا ليتهم ما حملوها ، كما تحمل المصاحف ولا نعمل بها ، ونتسمى بأسماء المسلمين على غير مسمًّى .

مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها ، كمثل الحمار يحمل أسْفاراً ، بئس مثلُ القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين .

* * *

وكان أن غلبهم عدوُّهم ، وقهرهم ، وسُلِبَ التابوت منهم ، ونُكِسُوا على رءوسهم ، فأصبحوا مغلوبين متفرقين . ، وطُرِدُوا من أوطانهم ، وسُلبتْ أموالهم وأبناؤهم .

وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟

* * *

فلما رأوا ما صار إليه أمرهم ، من تمزيق وحدتهم ، وتشتيت شملهم ، ونفيهم عن ديارهم ، عزَّ على العقلاء منهم . أن يصير هذا حالهم ومآلهم ، فذهبوا إلى نبيٍّ لهم ، ورجل صالحٍ حكيم فيهم ، وهو يُوشَعُ أو صمويل ، ولعلَّ صمويل كلمةٌ عِبرية تعريبها إسماعيل ويكون هذا من سُلالة سيدنا إسماعيل . وقالوا له : يا نبى الله جئناك لتختار لنا مَلِكاً ، يجمع كلمتنا ، ويوحِّد فُرقتنا

ويبعث العزم فينا ، ويقودنا لنسترد أوطاننا ، ونحرر أولادنا ، ونتخلص من محتلينا ، ونقاتل فى سبيل الله عدوّنا جالوت العملاق ، الذى طغى علينا ، وشردنا .

* * *

وقال لهم نبيُّهم : إنَّ الله قد بعث لكم طَالُوتَ مَلِكا .

قالوا : أنى يكون له الملكُ علينا ، ونحن أحقُّ بالمُلْك منه ، ولم يُؤْتَ سعةً من المال . قال : إنَّ الله اصطفاه عليكم ، وزاده بسطة فى العلم والجسم . والله يُؤْتى مُلكه من يشاء ، والله واسع عليم .

هؤلاء القوم ، لا عهدَ لهم ، ولا وفاءَ فيهم ، ولا رضاءَ بمشورة ، ولا خضوعَ لحق . فقد استشاروا نبيهم فى أن يختار لهم مَلِكا ، فما بالهم يرفضون هذا الاختيار ؟ ومالهم يستكثرون أنْ يكون طالوت ، لأنهم أحقُّ منه ، ولأنه فقير ؟

وسواء أكان طالوت فقيرا ، أو سقَّاء ، أو راعىَ حمير ، أوْ لَيْسَ من سُلالات الملوك كما يدّعون ، فإن الله قد اصطفاه ، واختاره ملكا عليكم ، والله أعلم بالصالح منكم ، وقد علَّمه ربه ، ووسَّع فِكرَه ، وأنضج رأيه ، وزاده حُسْن بَصَرٍ بسياسة الدولة ، وعزما فى الدفاع عنها ، وبَسَطَ له فى بدنه ليكون أمْلأَ للعين ، وأرْهب للقلوب ، وأوْقع فى النفوس ، وأقوى على الأعداء ، وأجْلَد على مكابدة الحروب .

وإن الله واسع الفضل ، يغنى الفقير ، ويُملِّكُ راعىَ الحمير ، ولو لم يكن دَمُه أزرق ، منحدرا من سلالات الملوك .

ذلك فضل الله ، والله يؤتى مُلكه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

* * *

وعادوا يسألون النبى صمويل ، وما آيةُ أنَّ الله اختاره واصطفاه ؟ فقال لهم نبيُّهم : إنَّ آية ملكه ، أن يأتيكُم التَّابوتُ فيه سَكِينةٌ من ربكم ، وبقيَّةٌ مما ترك آلُ موسى وآلُ هٰرون ، تحمله الملائكة ، إن فى ذلك لآيةً لكم ، إنْ كنتم مؤمنين .

* * *

سَكِينَةٌ من ربكم ، فيه دِينٌ تسكنون إليه ، فتصلح أموركم به ، وتتجدَّد عزائمكم ، وتعود إليكم نَخْوتكم ، فتقوَوْن على عدوكم ، وتستردُّون بلادكم .

وبَقيَّةٌ مما ترك آل موسى وآل هرون ، هذه البقية من الدِّين ، قَدْرٌ ضئيل ، على قدر ما تُطيقون أن تتمسّكوا به ، فقد ضاقتْ صدوركم ، وصدِئَتْ نفوسكم ، فأصبحتم لا تقوَوْن على التمسّك بدقائق تعاليمه ، وكافَّة حدوده .

وفى التابوت عصا موسى ، وهى رَمزٌ للقوة والسَّطوة ، وثيابُه وهى رمزٌ لذكراه وعِمَامَتُهُ ، وهى رمزٌ لتاج دِينه .

وتحْمِله الملائكة إليكم ، لتحملوه فى صدوركم ، وتردُّه عليكم من جالوت الجبَّار ، الذى غلبكم عليه ، وخلَّفكم ضُعفاء أذِلاَّء من بعده .

* * *

ورَضَخُوا آخر الأمر ، لِمُلْك طالوت ، وانْضَوَوْا تحت رايته ، وملَّكوه

زمامهم وسلموا له فى أن يختار جيشه منهم ، وكان طالوتُ لا يختار إلا الشبان الأعْزَابَ الشِّداد ، ذَوِى الأخْلاق الطيبة ، والنَّزْعة الحارَّة ، والغَيْرَة والنخوة والفدائيين المغاوير ، واجتمع له من هؤلاء جُندٌ كثير ، آلاف وألوف .

* * *

فلما فَصَلَ طالوتُ بالجنود ، وخرجوا إلى مفازات الصحراء ، عطشوا ، فسألوه الماء ، فسأل الله ، فقال الله يا طالوت ، قلْ لهم : إنى مُبْتَلِيكُمْ بنهر ، فمن شرب منه فليس منى ، ومَنْ لم يَطْعَمْه ، فإنه منى ، الا مَنِ اغترف غُرْفة بيده ، فشربوا منه إلا قليلا منهم .

* * *

وماذا يكون ، إذا شرب الجنود العِطاش ، من نهر وجدوه فى طريقهم ؟

وماذا يَبْغِى طالوت من تحريم ماء النهر على مُرِيدِيه المخلصين له ؟

إنَّ طالوت أحبَّ أن يلتمس فيهم الطاعة العمياء ، وهى أولى ضمانات النصر .

وأحبَّ أن يرى فيهم روح الصبر على المكاره ، وهذه عدة المحارب .

وأحب أن يتبين له الفدائى المخلص ، من الرخو المزعزع العقيدة .

وأحب أن يجعلهم يجابهون الشدائد ، تدريباً لهم على مجابهة العدو .

فمن صبر على الشدة ، وتقوَّى على النفس ، قوِىَ على الحرب ، وكُفِىَ عار التخاذل والتقهقر .

* * *

ورأى طالوت ألا يقسو ويعنُف عليهم فى التكليف ، وأن يكلهم إلى

أنفسهم ، ليعلم مقدار ما أُوتوا من ثقة فى النفس ، وعزةٍ فى الأخذ ، وعفةٍ فى التناول ، وزهادة فى الدنيا إذا أقبلت .

ولعله أراد لهم ألا يغرقوا فى الارتواء بعد لفحة الحر ، وحُرقة الشمس ، وحَمْوة الجسم ، فتنطفىء النار فى أحشائهم ، فتنفصم عُرَى أجسامهم ، وينزّ عرقُهم ، وتبرُد حماستهم ، إلاَّ مَنِ اغترف غُرْفةً بيده ، فهذا القدر مسموح به لا يُؤاخَذُ عليه .

* * *

فشربوا منه ، إلا قليلا منهم .

هـذه القِلة المؤمنة المباركة ، ثلاثمائة ، وثلاثة عشر رجلا ، من هذه الآلاف المؤلفة ، قِلةٌ قليلة ، قنعت بحفْنةٍ من الماء ، فأرْواها الله ، وأبرد عطشهم ورطَّب أرواحهم ، وكثرةٌ كثيرة ، فجَعَها الطمع ، فألهب الله أمعاءهم ، وحرّق صدورهم ، وأقلق نفوسهم ، فما يرتوُون ، ولا يشبعون ، حتى لو شربوا النهر كله ، والشّبع شبع النفس ، واطمئنان القلب .

* * *

فلما جاوز النهر ، هو والذين آمنوا معه ، لم يصارح المضعضعين فى إيمانهم ، ولم يعلن غضبه عليهم ، ولـكنه سيَّرهم معه حَوَاشِىَ لجيشه ، وجموعا هشة ، يُرْهب بكثرتها أعداءه ، والـكثرة ترهب الشجاعة .

* * *

فلما رأى هؤلاء الجبناء ، جيوش جالوت المجيَّشة ، كشفوا عن أنفسهم ، وأعلنوا عن جبنهم وخَوَرهم ، وقالوا : لا طاقة لنـا اليومَ بِجَالُوت وجنـوده .

وتقاعسوا وتخاذلوا ، وكاد الرعب يقتلهم ، والخوف من الموت يميتهم : وهموا بالتراجع والانسحاب ، وتلك أخطر الخطر على المحاربين .

والجيش كالبنيان ، إذا انهار منه جانب ، تصدع كله ، وتهدد بالدكدكة والخراب.

* * *

وتبدَّى المؤمنون المخلصون ، لهؤلاء الكثيرين المائعين ، يشجعونهم ، ويقوُّون روحهم ، ويبثُّون الحماسة فيهم ، ويقولون لهم : لا تخافوا ولا تتخاذلوا ، فنحن سنغلبهم بإيماننا بحقنا ، ودفاعنا عن أوطاننا ، واعتمادنا على ربنا .

قال الذين يظنون أنهم مُلاقو الله ، كم من فئة قليلة ، غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين .

وسألوا ربهم ، أن يهب لهم الصبر على المجالدة ، وتثبيت الأقدام فى المقاتلة ، وأن يهيىء لهم أسباب النصر بمدد ومعونة من عنده .

ولما برزوا لجالُوت وجنوده ، قالوا ربنَّا أفرغ علينا صبرا ، وثبِّتْ أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين .

* * *

ودارت رحى الحرب ، على الطريقة البُدائية ، فتقدَّم جالوت ، معتمدا على قوته ، وطلب المنازلة والمبارزة ، وكلما خرج إليه فارس ، جَنْدَله ، وأرداه قتيلا . أو أرجعه جريحا .

وبنو إسرائيل ، مرعوبون واجمون من جالوت ، فإما أن ينازلوه ، وهم يضِنُّون بأرواحهم ، وإما أن يفروا من وجهه هاربين .

وجالوت يُطيح بسيفه الرؤوس ، ويذبِّح كما تُذْبح الأغنام ، ويُسيل الدماء ، وبنو إسرائيل ، قد ساختْ نفوسهم ، وانخلعتْ قلوبهم من هول جالوت .

* * *

وفى مثل هذه الأوقات العصيبة ، التى ينشر اليأس فيها خِيامه ، يبعث الله الفرج واليُسر ، فتنفرج الصفوف عن شابٍّ جرىء ، فِدائِىٍّ ، يقذف بنفسه ، ليُبارز جالوت .

وطبيعةُ الجبناء الحَذَر ، فيخافون على هذا الشاب ، أن يقتله جالوت ، فيحجزونه حَذَرًا عليه ، وضنًّا به أن يروح ضحية هذا العملاق ، ويقدمونه لطالوت ، لعله يُهَدِّئ ثورته ، ويُبرد حماسته .

ولكنَّ طالوت ، انشرح له ، ودعا له ، وبارك عليه ، ونفخ فيه من روحه ، وزوَّده بسلاح وتوَّجه بخوذة الحرب ، وبِمِنْطَقةِ الفرسان شدَّها على خصره ، وبالسيف البتَّار ، سلَّمه إليه بيده ، ووعده : إنْ هو قتل هذا المارد ، أن يزوِّجه ابنته ، ويجعله ولىَّ عهده فى مملكته .

* * *

ولكن هذا الشاب ، يعتقد أن كل هذا ليس عدَّةَ الحرب ، وإنما عُدّته العزيمة والهمة ، والحرارة فى الدم والإقدام والجرأة على العدو ، والفِدائية العارمة ، وسواء لدى الفارس ، أبالسيف قطع ، أم بالرمح ضرب ، أم بالحجر قذف ، أم بالعصا لوَّح .

* * *

وكذلك كان هذا الفارس ، فقد طرح عن نفسه الخوذة والمنطقة والسيف والدِّرع ، ورجع إلى قوْسه وسهمه ، ومِقْلاعه وحَجَرِه ، فنفض كنانته ، وركَّب حجرا مَسْنوناً فى مِقْلاعه ، وصوَّب وسدَّد ، ورمى ، فأصاب المقتل من عدوه العملاق جالوت . فخر صريعا كما يخر جَمَل ، أو ينهار جانبٌ من جَبَل .

وقتل داودُ جالوت .

داود

وذهب الرَّوع عن القوم ، وزال كابوس العِمْلاق ، وانتصر هؤلاء ، وانكسر هؤلاء ، وأَقبل طالوتُ على داود ، يضمه إليه ، ويباركُ عليه ، ويُتوِّجه بتاج النصر ، ويزوِّجه بنته ، ويجعله خليفةً على الملك من بعده .

ولمع اسم داود . وسطع نجمه ، وتعلق الشعب به ، والتفُّوا حوله ، وتنادَوْا بزعامته ، وأصبح مِلْءَ أسماع الناس وأبصارهم ، وهم عن طالوت منصرفون .

* * *

وعَمِلَتْ نظرية تنازع البقاء عَمَلَها ، وغريزةُ الغيرةِ ، تُطفىء أضواءَ الحب. وعينُ الحسد ، ترمى بالشرر كلَّ ذى نعمة .

كان ذلك بين الملك طالوت ، وبين داود زوج ابنته ، وولى عهده ، وقاتل عدوه ، ومُنقذ شعبه !

والملكُ بأبَّهته وصَوْلته ، يخشى داود أن يخلعه من عرشه ، وأن يُوارِيه ، ويُرْخى الأستار عليه .

فسوَّلت لطالوتَ نفسُه ، أن يقذف بداود ، فى ميدان حربٍ جديد ، لعل حظه يخونه ، فلا يعود ؛ فبعثه إلى قبائل كنعان ، الغلاظ الشداد .

وذهب إليهم داود ، وبدأهم بالحرب ، وأعْمل فيهم السيف والضرب ، وردَّهم على أعقابهم ، وأمَّن الدولة من أخطارهم ، وعاد إلى طالوت ، يحمل أعلام النصر .

وما كان يَوَدُّ طالوت ، أن يعود داود ، وقد أعاد مجداً إلى مجد ، فعظم في أعين القوم ، وأسَرَ قلوبهم ، واستحوذ على مشاعرهم ، ورشَّحوه للملك عليهم .

* * *

ويزداد داود تمكيناً وتعزيزاً ، ويزيده الله عِلْماً ونوراً ، وحكمةً وتدبيراً ، وهيبةً وجلالاً ، حتى تأجَّجت نارُ الغيرة في صدر حَمِيه طالوت ، فلا وُدَّ ولا محبَّة ولا صداقةَ ولا صبرَ على البقاء معه ، فأيُّهما لا بد أن يختفي .

وما تهُونُ على طالوت نفسه أن تختفي ، وأن يترك مُلْكه لشابٍّ مهما كان زوجاً لابنته ، ومهما كان زعيماً في أمته ، فنفسُه ومُلكه قبلَ الزعامةِ والمصاهرة ، ومِنْ بعدِه الطوفان .

ولم يبق إلا الغَدْرُ والخيانة ، ووسوسةُ إبليس ، تخيِّم على قلب الرجل الصالح طالوت ، فأْتمَر بداود ، وأرْهف سيفَه ، وخرج في جماعةٍ من الحمْقَى حوله ، إلى الخلاء يفكرون ويُدبِّرون .

* * *

وعينُ العناية الإلٰهية ، لا تأخُذها سِنَةٌ ولا نوم ، ونفْسُ داود صافيةٌ طاهرة ، تُحِسُّ وتعلم ، ويُلهمها الله فتُلْهَم ، ويدرك أن القلوب تصدَّعتْ ، وأن حبالَ الوُد تقطعتْ ، وأن ثعابين الغَيْرة شالَتْ رأسَها وفَحتْ ، وأن القوم في طلَبِه يفكرون ويدبِّرون .

* * *

فاتجه إلى الله يستعينه ، ويسأله الرعاية ، وأن يعينه على الغادرين ، فألقى الله عليهم النوم ، فراحوا وهم فى مجلسهم فى سُباتٍ عميق .

ومرَّ بهم داود ، فاستلَّ منهم سيوفهم وحرابهم ، وتولى عنهم ، وما ردَّه عن قتلهم إلا إيمانه وخوفُه من الله .

* * *

وأرسل إليهم سيوفهم ، وأوْضح فضلَه وعفوَه عنهم ، وأنه وَهَبَ لهم حياتهم . فاعترفوا بذنبهم ، واستغفروا ربَّهم ، وتخلَّوْا له عن مُلْكِهم ، وارتضوه ملكاً عليهم .

وآتاه الله المُلك والحكمة ، وعلَّمه مما يشاء .

ولقد آتينا داود منَّا فضلاً ، يا جبال أوِّبِي معه ، والطيرَ ، وألَنَّا له الحديد ، أنْ اعمَلْ سابِغَاتٍ ، وقدِّرْ فى السَّرْدِ ، واعْمَلوا صالحاً ، إنِّى بما تعملون عليم . وسخَّرنا الجبالَ معه يُسَبِّحْن والطيرَ ، وعلَّمْناه صنعة لَبُوسٍ لكم ، لتُحْصِنَكُم من بَأْسِكُم . وآتينا داود زَبُوراً . ووهبنا لداود سليمان ، نِعْم العبْدُ إنَّه أوَّاب .

* * *

نِعَمٌ كثيرة ، فالجبال تُؤَوِّبُ معه ، وتردِّدُ تسبيحه لله ، كلما رأى قدرة الله فيها ، وكلما اقشعرَّ بدنُه من جَبَرُوتِ الله ، وأغْرقَ فى تأمُّلاته ، وسَبَحَ فى رَهَبُوتِ ربِّ العالمين . وكلما سَرَحَ بفكره ، كيف نصَبَ الله هذه الجبالَ وأرساها ، وجعلها أوتاداً فى الأرض ، وأسْكن فيها العقْبان والصقور والنسور

وهيأها مكامِنَ للوحوش ، ومغاوِر للعُبَّاد ، ومحاريب للزهاد . ومن ورائها تبرز الشمس ، ومن بين يديها يزهو القمر ، وعلى قممها تَتَسَمَّر النجوم فى صفحة السماء ، والجبالُ تردُّ صدى صوته كلما جأر بذكر الله ، فهى تؤوِّب معه ، وتُسْمِعُه نفسَه ، فهى تصلِّى معه ، وتشاركه فى تسبيحه .

* * *

والطيرُ تحاكى صوته ، وتُنْشِد ترانيمه ، وتُلحِّن مزاميره ، وتؤنسه فى محرابه وتحط على بابه ، كأنها من حُجَّابه ، نَشْوَانَةٌ فى صحبته ، أليفةٌ فى وُدِّه ومحبته .

والجبال تبوح لداود بسرّ كنوزها ، وتبذل له من معادنها ، والطير تأتيه بأحطابها ، فيوقد النار ، ويَصْهَر المعدن ، ويصنع الدروع ، وألبِسة الحرب .

صنعةٌ علَّمه اللهُ إياها ، وأغناه منها ، وفضَّله بها ، وجعلها حصْناً للناس ، من بَأس الناس ، وياليتهم يشكرون !

وعلَّمناه صنعة لَبُوسٍ لكم لتُحصِنكم من بَأْسِكم ، فهل أنتم شاكرون ؟

* * *

وأنزل عليه ترانيم ، يُلَحِّنها بمزماره ، فتُطْرِبُ القوم ، وتُلِين ما جَمَدَ من قلوبهم ، وتُسيل ما جفَّ من عواطفهم ، وترقِّق ما غَلُظ من طباعهم ، فيَسْتَمِيلهم إلى دينه .

وكانت مزامير داود ، أقْبَاساً من نور ، وألحاناً من هِداية ، وأشعَّةً من معرفة ، وكانت كتابَ الله إليه ، ونعمتَه عليه ، ومنهجَه فى هداية قومه .

* * *

ووهب الله لداود أولاداً ، وكانوا كثيرين ، وجمَع الله كل ما يُرجَى

obeikandl.com

منهم من خير ، فى ولده سليمان ، فكان نبياً ورسولا ، ومَلِكاً كريماً .
نِعْم العبد من عباد الله الصالحين .

نِعَمُ الإله على العباد كثيرة وأَجَلُّهنَّ نَجَابَةُ الأولاد

ووهب الله لداود القوة القوية التى صرع بها جالوت ، وحلَّ بها أعزَّ منزلة فى قلب حَمِيه طالوت ، ووهب له العِصْمة فحفِظَتْه أن يَزِلَّ أو يثور على مَن ائتمروا به ، بقيادة طالوت . وهب له السَّماحة ، وحب السَّلام ، والعفو الأَبْيض ، فأعاد إليهم السلاح الذى أعدُّوه لقتله .

***

أَوَكُلُّ هذا يا داود ، وتميلُ نفسُك ، وتمتدُّ عينُك ، إلى فتاةٍ فاتنةٍ ، مخطوبة لشابٍّ مجاهد محارب ، غائبٍ فى الميدان ، فتخطُبُها إلى أهلها ، فيتورَّطون معَك ، ويزوِّجونها منك ، وتسعد بها ، ويشقَى خطيبُها ، ويُهلِك نفسه ، ويكظم غيظه ، ويسأل الله فيك ، ويستعْدِيه عليك .

ويبعث الله اثنين من ملائكته ، فى صورة أخوَيْن مختصِمَيْن ، ويتسوَّران عليك مِحرابَك يختَصِمَان إليك ، ويَعْرِضان قضيَّتهما عليك ، فتستَبْشِع التَّعدِّى ، وتحكم على المعْتدى ، وتهُمُّ بالقصاصِ منه ، فيرُدُّ عليك القضية ، ويُجَسِّم لك الخطيئة ، ثم تلتفت فلا تراهما ، فيرجُفُ فؤادك ويهتزُّ بالقُشَعْرِيرَةِ جسْمُك ، وتؤوبُ إلى ربك ، وتستغفر من ذنبك وتتوب ، فيتوب الله عليك !

واذكرْ عبدَنا داود ، ذَا الأَيْد والقوّة ، إنه أوَّاب ، إنا سخَّرنا

الجبالَ معه يسبِّحْن بالعَشِيِّ والإشْراق ، والطيرَ محشورةً ، كلٌّ له أوَّاب ، وشدَدْنا مُلْكَه ، وآتيْناه الحِكمةَ وَفَصلَ الخِطَاب .

وهل أَتَاكَ نَبأُ الخصْمِ ، إذْ تَسَوَّرُوا المحراب ، إذْ دخلوا على داود ، فَفَزِعَ منهم ، قالوا : لا تخف ، خَصْمَانِ ، بَغَى بعضُنَا على بعضٍ ، فاحْكُمْ بيننا بالحقِّ ولا تُشْطِطْ ، واهْدِنا سَواءَ الصِّراطِ ، إنَّ هذا أخِي له تِسْعٌ وتسعون نعجةً ، وَلِيَ نعْجةٌ واحدة ، فقال : أَكْفِلْنِيهَا ، وعزَّنِي في الخطاب !

قال داود : لقد ظَلَمَك ، بسؤال نَعْجَتِكَ إلى نِعَاجِه ، وإنَّ كثيراً من الخُلطَاءِ لَيَبْغِي بعضُهم على بعض .

* * *

يا لُطْفَ الله ، تُؤَدِّبُ الأنبياء ، وتُربِّي الأوْلياء ، وتأْخُذُ الأقوياء ، وتَنْتَصِفُ منهم للضعفاء !

حتى أنتَ يا نبيَّ الله داود ، يا مَنْ مَكَّن الله لك في الأَرض والسماء ، ورفعك منزلةً علياء ، حتى أنتَ لا تنجو من القضاء ، ولا تمْرُق بهفْوَةٍ إلاَّ بعتابٍ وجزَاء ؟ !

* * *

وأيْن نحنُ مِنْ هؤلاء الأنبياء ؟ لنا هَفْوَةٌ وهَفَوَات ، وخَطَايَا وسَيِّئات ، وجُحُودٌ وكُفْران ، وفُسُوقٌ وعِصْيان ، وتُحْصِي علينا ملائكةُ الدَّيَّان ، ونحن في جُرأةٍ جريئةٍ نقول يا رحيمُ يا رحمن .

* * *

ويقول ربنا سبحانه : فغفرنا له ذلك ، وإنَّ له عندنا لَزُلْفَى وحُسْنَ مآب . ولكنْ بعد أن استغفر ربه ، وخَرَّ راكعاً وأناب .

* * *

وحكومةٌ أُخْرى يا داود تُعْرضُ عليك ، تلك القضيةُ التى عُرِضَت عليك وعلى ولدِك سليمان ، وكنتما قاضيَيْن مجتمعين . وقضَيتُما بحكْمَيْن مختلفين ، فأىٌّ منكما أخطأ ، وأىٌّ أصاب ؟ أم كنتما على حقٍّ وهدى فيما تحكمان ، وإنما لكلٍّ منكما نظرٌ وشان .

* * *

وداود وسليمان ، إذْ يحكمان فى الحرث ، إذْ نفَشَتْ فيه غنمُ القوم ، وكنا لحكمهم شاهدين ففهَّمناها سليمان ، وكلاًّ آتينا حُكماً وعِلْما .

* * *

المدَّعِى بالحق فى القضية ، جماعةٌ لهم حدائقُ من أعناب .

والمدعَى عليهم بالخسارة والتعويض ، ناسٌ لهم أغنام ، تركوها من غير حُرَّاس ولا رِعَاء ، فنزلَتْ فى الحدائق ، فأكلتْ منها ، وأتْلفتْ ثمرَها .

واحتكم المدَّعون ، والمدَّعى عليهم ، إلى محكمةِ داود وسليمان .

فقضى داود ، بتسليم الأغنام لصاحب الحديقة ، تعويضاً للتلف ، قضاءً بشريعة يعقوب أبى يوسف المُتْلِفُ يُؤخَذ بما أتلف : جزاؤه : مَنْ وُجدَ فى رَحْلِه ، فهُو جَزَاؤُه .

وقضى سليمان ، بأن تُسلَّم الأغنام إلى أصحاب الحديقة ، ينتفِعُون

بألبانِها وأولادِهَا وأشعارها ، وأن تُسلم الحديقة إلى أصحاب الغنم ، يَرُمُّونَها ، ويتعهَّدونها حتى تعود إلى ما كانتْ ، ثم يترادَّانِ ، فيتسلَّمُ كلُّ صاحبِ حاجةٍ حاجتَه .

على مبدأ : من أتلف شيئاً فعليه إصلاحه .

فأيكُّما كان أعْدل ؟ وأيكما كان أرْحم ؟

ففهَّمناها سليمان ، وكلاًّ آتينا حُكماً وعِلْما .

obeikandl.com

سليمان

وَوَرِثَ سليمان داود . وَرِثَ مُلْكَ أبيه ، ومقامه فى النبوة ، وقضاءه فى الناس ، وعلَّمه الله لغة الطير ، والنمل ، وسخر له الريح تجرى بأمره ، وتنقله بكرسيه فى لمحة ، غُدُوُّها شهر ، وَرَوَاحُها شهر ، واستعبد الله له الجنَّ تخدمه ، والشياطين تغوص له البحار ، وتستخرج له نفائسها ، وتبنى له القصور ، وتخترع له الصنائع الحربية ، وفجَّر الله له بركاناً ، يسيل منه النحاس المصهور ، فتبنى له الجن قصوراً ، وتصُبُّ له تماثيل للأسود والصقور والنسور ، تزيِّن بها عرشه ، وقوائم كرسيه . وتصنع له صِحَافاً كبيرة ، وأطباقاً صغيرة كأطباقنا وقواربنا ، وجِفَاناً كبيرة متسعة كالأحواض ، وقُدُوراً واسعة ، لا يمكن إنزالها عن كوانينها وأثافيِّها .

واتسع عليه مُلكه ، وتوفرت لديه مظاهر أبهته ، حتى الخيل الصافنات الجياد ، كانت تعرض عليه ، ليُمتِّع نفسه باستعراضها ، ويُشبع هُوايته بالمسْح عليها ، والإعجاب بالأصائل المُعْرِقة منها ، حتى ألْهاه تكاثُرها ، وزَهَتْه زينتها ، فقضى اليوم كله فى الاحتفال بها ومرور موكبها بين يديه حتى غابت الشمس ، ولم يُقِمْ الصلاة ، ولم يفرغْ لذكر الله ، وشغلتْه غزارة الخير ، واجْتِرارُ النعيم ، ولذة الاقتناء ، عن ذكر ربه ، حتى انقضى النهار ، ودخل الليل .

فلما أفاق ، ندم ، وخشى غضب الله ، وتوقَّع ما يكون من غضب الله ، فثار على الخيل التى ألْهته ، وهمَّ أن يضرب أعناقها .

ولكن ما ذنبُ الخيل والذنب ذنبه ؟ وما جريرتُها ، وهى من عَطاء ربِّه ؟ فتاب وأناب ، وقال : رُدُّوها علىَّ ، وطَفِقَ مَسْحاً بالسُّوق والأعناق .

وفى المسْح عليها ، اسْتِرْواحٌ للنفس ، واستشْعارٌ بالعطاء .

ومَثَلُ المسْحِ عليها بيد الحنان والرضا ، بعد أن كان سيضرب أعناقها وهو غاضب عليها ، كمَثَلِ المسْحِ على رأسِ اليتيم ، استجْلاباً لرِضا الله .

* * *

كل هذا المُلْك ، وهبه الله لسليمان ، فما كان يشغله عن ذكر الله ، ولئن شغله ، فلقد كان أسرع إلى الأوْبة والتوبة إلى ربه ، يسأله الصفح والغفران .

سليمان ، نعم العبد ، إنه أوَّاب .

وكان أبوه النبى داود عليه السلام ، قد بدأ يبنى ، مدينة أورشليم ، فى الموضع الذى ضرب فيه موسى خيامه ، يوم حطَّ فى الأرض المباركة ، ولكن المنية أعجلتْ داود . فما أتم ، فليتمَّ سليمان ما بدأ أبوه .

فسخَّر الإنس والجن والطير ، وكلَّ ما يملِك من عَتَادٍ ، حتى النحاس المصهور ، والشياطين ، كلَّ بنَّاء وغوَّاص ، ومن الشياطين من يغوصون له ، ويعمَلون عملاً دون ذلك .

* * *

ومن الشياطين فريقُ المَرَدَة ، ميَّالون للشر ، نزاعون للضُرِّ ، فإنْ انطلقوا ، عاثُوا فى الأرض ، وأفسدوا المعاش ، وهتكوا الأستار ، ونغَّصُوا على الناس ، بطَلَاسِمِهم وسحْرِهم ، فبلبلوا خواطر خلق الله ، حتى كاد يصدِّق كثيرٌ ، أن لهم أمراً من دون الله .

واتَّبعوا ما تَتْلُو الشياطينُ على مُلْكِ سليمان ، وما كفر سليمان ، ولكنَّ الشياطين كفروا ، يُعلِّمون الناسَ السِّحر ، وما أُنزل على الملَكَيْن ببابل ، هَاروتَ ومَارُوتَ ، وما يُعلِّمان مِنْ أَحَدٍ ، حتى يقولا : إنما نحن فتنةٌ ، فلا تكفُرْ .

فيتعلمون منهما ما يُفرِّقون به بين المرء وزَوْجِه ، وما هم بِضارِّين به مِنْ أَحَدٍ إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم .

* * *

عصر سليمان كلُّه خوارق ، وأحداث ، ومُعجزات ، وعجائب .

جنٌّ تخدم ، ورياحٌ تسرى ، وطيرٌ تتكلم ، ونملٌ تعترض ، وسِحْرٌ وسَحَرة ، وجنٌّ مَرَدةٌ كَفَرة ، ونحاسٌ ذائب ، واطِّلاعٌ على أخبار الغائب ، ونبيٌّ مَلِكٌ على بِساطِ الريح ، وطيرٌ تَفْرِدُ أجنحتَها عليه .

فى هذه الهيئة ، وهذه القوى المُسخَّرة المُسيَّرة ، عاش سليمان .

* * *

وحُشِرَ لسليمان جنودُه من الجِنِّ والإِنْسِ والطيرِ ، فهم يُوزَعُونَ ، وبأَمْره يَأْتَمِرون ، وفى حَشْدِه يسيرون .

حتى إذا أَتَوْا على وادى النَّمْل ، ووادِيهم بالشام ، تكثر فيه النِّمال ، وكما للنَّحل يَعْسُوب ، فللنَّمل يَعْسُوب ، مَلِكَةٌ عليه ، تدبر أمره ، وتدفع الخطر عنه ، وتبصِّره وتحذِّره .

ورأتْ مَلِكَةُ النمل ، جيوش سليمان ، قادمة ، فخافتْ أن تدوس الجيوشُ رعاياها من النمل ، وهم لا يشعرون .

فصاحتْ فيهم : يأيُّها النمل : ادخلوا مساكنكم وجُحوركم حتى لا يُحَطِّمَكُم سليمانُ وجنودُه وهم لا يشعرون .

وسليمان يفهم لغة كل حَىّ ، فسمعها ، وسرَّه أن يعرف لغتها ، وحِرصَها على رعيَّتِها وحَسِبَ ذلك تعليما له فى الحِرْص على رعيّته ، وطلب من الله أن يُوفقه إلى شكر نعمته ، التى أنعمها عليه وعلى والديه ، وأن يعمل الصالحات التى ترضيه ، وأن يدخله الجنة برحمته مع عباده الصالحين .

* * *

وتَفَقَّد الطير ، فقال : مالِىَ لا أرى الهُدهد ؟ أمْ كان من الغائبين ؟

لأعذِّبنَّه عذاباً شديداً ، أو لأذبحنَّه ، أو ليأْتِيَنِّى بسلطانٍ مبين .

ولم يَطُلْ غياب الهدهد ، حتى جاء يحمل خبراً ، أىَّ خبر ، متحدِّياً سليمان فى مُلْكه وقوّته ، وسطْوته على الجن والإنس والطير .

ويقرِّر الهدهد : أنَّ الله سبحانه ، يَهَب عِلمه لمَنْ يشاء ، وقد يتخطَّى به الأنبياء ، ويمُنُّ به على الطيور الخرساء .

فقال : أحَطتُ بما لم تُحِطْ به ، وجئتُك من سبإٍ بنبإٍ يقين .

* * *

سبأ فى اليمن ، ونحن يا هدهد فى الشام ، فكيف وصلت ؟ وكيف عُدْت ؟ وأىّ ريحٍ حملتكْ ؟ .

إنها قدرةُ الله يا سليمان ، ولقد وجدْتُ القوم هناك ، تَمْلِكُهم امرأة ، بِلْقيسُ مَلِكَةُ سبأ .

ويا سليمان . لقد رأيتُ عجباً ، رأيت القوم يعبدون الشمس ، ويسجدون لها من دون الله ، وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم ، فصدَّهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون .

يا ليت هؤلاء القوم يتدبَّرون ويتفكرون فى خلق الله ، الذى يُخرج الخَبْءَ فى السموات والأرض ، ويعلم ما يُخْفُون وما يُعْلنون ، اللهُ لا إلٰهَ إلا هُوَ ربُّ العرشِ الكريم .

يا ليتهم يا سليمان ، يجدون هادِياً يهديهم ، ويزكِّيهم ويُعلمهم الكتاب والحكمة ! .

يا ليتك يا سليمان ، تدعوهم إلى الله ، وتُنْقذهم من حَمْأَةِ الشِّرك والضلال ! يا ليتك ! .

وعجب سليمان للهدهد ، يغيب ويغْدو إلى اليمن ، ويرى الناس ، ويتفهَّم أحوالهم ، ويعلم دينهم ، ويُدرك ضلالتهم ، ثم يعود فيشرح ما يرى ، ويتمنى على نبى الله ، أن يَنْشَطَ ويهدى خلقَ الله !

ويستكثر سليمان على الهدهد ، أن يدرس حال أهل سبأ فى لمحةٍ من زمن ، ويستبعد أن يكون ذلك من طير ، ومن هدهد ، كان منذ لحظةٍ يتوعَّده

بالعذاب ، ورأى فى هذا ، قدرةَ الله ، وأنها فوقَ كل قدرة ، وأنَّ فضلَ الله ليس مقصوراً على الأنبياء .

وخشع ، وخرَّ ساجداً ، وقال للهدهد : سننظر : أصدقتَ ، أم كنت من الكاذبين .

اذهبْ بكتابى هذا فألْقِهِ إليهم ، ثم تولَّ عنهم ، وتَوَارَ ، بحيث تراهم ، ولا يرونَك ، فانظرْ ماذا يَرجعون ، و بأىِّ صورةٍ سيردُّون .

وطار الهدهد بكتاب سليمان ، وألقى الخطاب فى حجر الملكة ، فلما قرأته ، جمعَتْ القوم ، وعرضتْه عليهم ، وقالتْ : إنى أُلْقِىَ إلىَّ كتابٌ كريم ، إنَّه من سليمان النبى المَلِك ، و إنه ، بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعْلُو علىَّ ، وأْتُونى مسلمين .

يا قومى ، ماذا ترون فى هذا الإنذار ، و بماذا تشيرون علىَّ أنْ أعمل ؟ فإن الرأىَ شورَى ، وهذه مسألةٌ خطيرة تمسُّ ديننا وحريتنا ، واستقلال وطننا .

وألْمَعَتْ بلقيس وهى تعرض خطاب سليمان ، إلى ما فيه من تهديد ووعيد .

ولمَّحتْ إلى ما يدَّخره الوطن فى رجاله وشبابه لدفْع خطر الغزْو ، وشبَحِ الاستعباد .

ولوَّحتْ بما يُثير حماستهم ونخْوتهم وغيْرتهم على بلادهم .

قالوا : نحن أولو قوة ، وأولو بأْسٍ شديد ، ونحن على أهْبة الاستعداد والنعْبئة والأمرُ إليك ، فانظرى وقدِّرى ، ونحن طَوْعُ أمرِك ، ورَهْنُ إشارتِك .

* * *

والنساء ، أفْتَكُ أسلحتهن الدَّهاء . فقالتْ . مهلا يا قوم ، فالرأى عندى أن نستخدم الحيلة ، حتى نكشف سرَّه ، ونَسْبُر غَوْرَه ، ونقدِّر مَدَى تحمُّسِه لرأيه ، وتمسُّكِه بتهديده ، فإن الملوك يا قوم ، إذا دخلوا قريةً أفسدوها ، واستباحوها ، وكسروا شوْكتها ، وجعلوا أعزةَ أهلِها أذلَّة .

وهم لا بدَّ فاعلون ، وما غُزِىَ قومٌ فى عُقْر دارهم إلَّا ذلُّوا .

والرأىُ أن نُرسل إليهم بهدية ، لنرى ماذا سيردُّون علينا .

* * *

وماذا تكون الهدية ؟ لمثل هذا النبى الملك ؟ الذى يبعث تهديدَه فى مِنقار هدهد ؟ لا بدَّ أن تكون أغلى ما فى خزائن الدولة ، من نفائس وجواهر ولآلئ ، ولا بدَّ أن تكون سيوفاً يمانية ، وحِراباً سبائية ، على خيلٍ مطهمة ، يقودها فرسان وغلمان !

والهدهد يتسمَّع ويترقَّب ، حتى إذا تحرك مَوكب الهدية ، انفلت وطار ، وسبق الريحَ إلى سليمان .

وانقضتْ فترةٌ من زمان ، حتى وصل الركب على باب سليمان ، فلما دخل عليه ، وأَلْقى بالهدايا بين يديه ، نظر إليها سليمان نظر العفيف الذى أغناه ربه أغنى نفسه بالتعلق بالله ، وأغنى خزائنه بوافر المال . واستهان بتفكير القوم ، واستبشع دهاء هذه الملكة ، فهى تود أن تشترى ذمته ، وتستلين عزمته ، وتشبع عاطفة الاستحواذ فيه .

فتأبى عليها ، وازدرى مالها ، وأنها مهما أغدقت عليه ، فإن ذلك لا يصرفه عن تشبثه بإسلامها ، وإسلام قومها ، فهذه مهمته ، وذلك واجبه .

وقال : أتمِدُّوننى بمال ؟ فما أتانى الله خيرٌ مما أتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون . فرح الصبيان باللعب والهدايا .

خذ يا رسولها ، خيلك وجواهرك ومالك ، وارجعْ إلى ملكتك ودولتك ، وأنذرهم أننا فهمنا حيلتهم ومكرهم ، وأنهم مصرُّون على دينهم ، وأنهم بالهدايا ، يحسَبون أننا نسكت عنهم .

فلنأْتِينَّهم بجنودٍ لا قِبَلَ لهم بها ، ولنُخرجنَّهم منها أذِلَّة وهم صاغرون .

وعاد رسولها إليها ، والهدهد فى جو السماء يطير من فوق رأسه ، وسمع الملكة ، وسمع ما قررتْ العزم عليه ، وقدَّروا أنهم لا يقوَوْن على سليمان ، وأن أقرب طريق إلى الأمن والسلامة ، الطاعة والتسليم .

* * *

وعاد الهدهد إلى سليمان ، فأخبر : إنهم فى طريقهم إليك .

* * *

وسأل سليمان الجن : أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ؟

قال عفريت من الجن ، أنا آتيك به قبل أن تقوم واقفاً من مجلسك ، فقد منحنى ربى من القوة ، أن آتيك به ، وإنى عليه لقوىٌّ أمين .

وتصدّى له أخٌ عفريت ، أقدر منه ، فقد استمد قدرته من الله ، ومن سرّ كتاب الله ، ومِنْ دعائه ربه باسمه الأعظم ، فهو مَدَدٌ ، يهون بجانبه كل مدد .

ومن أجل هذا ، أشاع الله اسمه الأعظم بين سائر أسمائه التسعة والتسعين . حتى ندعوه بأسمائه كلها ، لا ندرى أيها الأعظم ، كليلةِ القدر مشاعٌ بين ليالى الزمان .

وقال العفريت يا سليمان ، أنا أستطيع أن آتيك بعرش هذه الملكة ، قبل أن تغمض عينك وتفتحها .

قال الذى عنده علمٌ من الكتاب ، أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك .

فلما آنس منه هذه المقدرة ، ورآه مستقِراً عند كلامه ، يقول ويفعل وينفذ ، قال سليمان : هذا من فضل ربى ، ليختبرنى ويبلوَنى ، أأشكر ، أم أكفر ؟

ومَن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر ، فإن ربى غنى كريم .

* * *

وقال سليمان للجن : نكِّروا لها عرشها ، وغيِّروا فى معالمه تغييراً خفيفاً ، وموِّهُوا فى ألوانه تمويها لطيفا ، لننظر تدبيرها ، ونختبر ذكاءها ، ونحكم على تصرفاتها إن كانت ستهتدى وتعرفه ، أم تكون من الذين لا يهتدون .

* * *

ولماذا فكَّر سليمان فى امتحانها ؟ هل سمع كلاماً عنها ؟ أم افترى بعض الجن عليها ؟ فقبَّحوها ، ونسبوا إليها ماهى بريئة منه ؟

* * *

لقد أبلغه بعض المفترين من الجن أنها مريضة بداء العناد والكِبْر ، وأنها تُصِرُّ على رأيها وتكابر فيه . ومن أجل هذا ، جعل كتابه إليها

يحمل فى طياته التهديد والإنذار . وادَّعَوْا عليها ، أنها ليست امرأة ، فى ساقيها شعر ، كشعر الرجال . فأحب أن يكشف سرها .

وجاءوه بعرشها ، ونكَّروه ، ووضعوه فى مدخل المكان ، وفى صدره جلس سليمان على عرشه .

فلما جاءت ، سلّمت ، وهمّت أن تجلس ، قيل لها : أهكذا عرشك ؟ فتأملته وتبينته ، وفى هدوء قالت : كأنه عرشى ، وفى نفسها عجبٌ عجيب ، أىّ قوة أتت بعرشى من سبأ إلى هنا ؟ وإن هذا لا يكون إلا بمعجزة ، والمعجزات لا تظهر إلا على يد نبى .

وإن سليمان بهذا لا بد أن يكون نبياً ، فوق أنه مَلِكٌ قوى . فقال سليمان متحدثاً بنعمة الله : لقد أوتينا العلم من قبل أن نعلم هذا ، وكنا مسلمين مؤمنين بما علمنا من قدرة الله .

* * *

وأحب سليمان أن يختبر عنادها وكبرياءها ، وأن يكشف سر ما أشاعوه فى تنكرها ، وما قبَّحوها من عيوب فى خِلْقتها ، وشعرٍ فى جثتها .

فأمر الجن فحفروا نهراً أمام عرشه ، وأجرَوا فيه الماء ، وأطلقوا فيه السمك ، مختلف الأحجام والألوان ، وغطَّوْا هذا النهر بزجاج ، يشف عما تحته .

ثم أدخلوها على سليمان ، فرأت النهر بينها وبينه ، فحسبته لُجَّة ، وماء عميقا ، وهى لا بد داخلة عليه ، حتى لو عبرت وخاضت البحر إليه ، حتى تنفى عن نفسها تهمة الإصرار والاستكبار .

وهى لابد تخوض الماء ، ولابد ترفع ثوبها قليلا قليلا ، فكشفتْ عن ساقيها .

* * *

وكثيرٌ على مَلِكةٍ أَبِيَّةٍ ، أجْبرتْها القوة ، وأرغمتها أن تكشف ساقيْها ، فى حفل عظيم كحفل سليمان ، وحسِبتْ ذلك امتهاناً وهوانا ، واحتسبَتْ هوانَها فدْيةً لوطنها ، وبَانَ جمالُ ساقها ، وأناقة قَدَمِها ، وتجلَّتْ قدرة الله وجلاله فى سِحْر جمالها ، وبدتْ هيبتها وعظمتها فى خضوعها وتواضعها ، وكذبتْ الشائعات فيها ، واستولتْ على قلب سليمان ببهائها ، فتسرب إلى قلبه حبُّها . فأسرع إليها ، وقال لها :

أسْدلى يا بلقيسُ ثيابك ، يا ملكةَ سبأ ، فهذا زجاجٌ شفيف ، يشف عما تحته ، إنَّه صرحٌ مُمَرَّدٌ من قوارير ، تستطيعين أن تعْبُرى عليه ، ولا تخافى أن تقعِى فيه .

* * *

وبهرها هولُ الموقف ، وراعها تهويلُ الجن ، وكيف يَخْدَعُ الفكرُ البصر ، وخرَّتْ ساجدةً لله ، ثم رفعتْ رأسها وهى راكعة ، تسأل الله الغفران .

رب ، إنى ظلمت نفسى ، فيما كنت أعتنق من دين قومى .

رب : إنى أسلمتُ مع سليمان لله رب العالمين .

* * *

وما كان يصدُّها عن الإسلام ، إلا أنها عاشتْ فى بيئةٍ كافرة . ولم تبلُغْهم الدعوة ، ولم يَدْعُهم رسول .

فكانتْ من أهل الفترة ، وأهل الفترة ناجون . حتى نبعث رسولا .

وآمنتْ بسليمان عن عقيدةٍ ويقين ، لا عَنْ رهبةٍ وخوف ، وتزوَّجها سليمان ، فكانتْ أكرم نسائه عليه .

أيوب

تمثال الصبر ، وقوة الجلد ، وتحمُّل الوطأة ، وطأة الابتلاء .

بل تمثال للعقيدة الراسخة ، والفكرة التى تستبد بصاحبها ، فلا يتحول عنها ، ولا يتحلل منها . مهما تنكَّر له وجه الزمان ، وتآزرت عليه الحدثان ، فهو هو ، لا يستطيع فِكاكا من دِين اعتنقه ، ولا يأْساً من ربٍّ وعده ، والله لا يُخلف الميعاد .

* * *

يضرب الناس المثل بصبر أيوب ، وما أحقهم أن يضربوا المثل بثباته على مبدئه ، وصلابته فى رأيه ، وصموده على عقيدته ، أمام الحادثات .

* * *

وإذا قويت الروح ، ونضج الرأى ، وثبت المبدأ ، وكبرت النفس ، تضاءلت سطوة الجسد ، وتطامن الجسم ، وراحت بهيمينه ، وزكا القلب ، وشف الفؤاد ، واتصل حبله بحبال نور الله ، فأصبح لا يرى إلا الله . ولا يحس إلا روح الله .

ويتخلَّف الجسد وراء الروح ، فتتحكم فيه ، فتحرقه بنار الصوم عن حطام الدنيا ، فيخف ويضمر ، وتجرجره ، فيقوم الليل ، ويوالى الصلاة ، حتى تهد قوته ، وتكبح الميل فيه ، فلا يضل ولا يتيه إلا فى ساحات رضوان الله .

وتترطب الروح بالرضا ، ويكتوى الجسم بالكبت والحرمان .

* * *

ولأمر ما ، أمر الله سبحانه ، نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم ، أن يقيم الليل إلا قليلا ، نصفه ، أو ينقص منه قليلا ، أو يزيد عليه ، وما يتبقى من الليل ، يرتل فيه القرآن ترتيلا .

إن ذلك كان لتتربى نفسه ، وتنمو روحه ، وتسمو على جسده ، فتثبت عقيدته ، وتتعلم على هذه الطريقة أمته .

* * *

وبمثل هذا ، ربَّى الله الأنبياء من قبله ، وربَّى أيوب الصابر ، الثابت العقيدة ، المتين المبدأ ، الصامد فى البلوى ، الراضى بالقدر ، الشاكر لله .

يا ليتنا نأخذ أبناءنا بهذا الأسلوب فى التربية ، أسلوب التسامى ، فتقوى فيهم الروح ، وتتحرر العقول من أغلال الجسد ، وتنفك عنهم أغلال الشيطان .

* * *

ويدّعى الغربيون من علماء التربية أنهم أول مَن وصلوا إلى نظرية التسامى فى التربية ، وما يدرون أن الله سبحانه ، رسم للبشر هذه النظرية فى كتبه السماوية .

* * *

وعندهم وسيلة التسامى ، استهلاك ما زاد من حيوية الجسم فى الألعاب والهوايات بالنهار - والنهار جُعل للمعاش لا للألعاب ، والليل سَكَنٌ للنفس بالعبادة ، وسكن للجسم بالراحة . وسكون النفس بالعبادة ، لا يكون إلا بإقامة الصلاة بالليل ، فى صبر وتجلُّد .

* * *

وها نحن أولاء ، لم نأخذ بنظرية التسامى ، لا بما رسم الشرع ، ولا بما رسم الغريبون المربون ، فلا بالصلاة أقمنا الليل ، ولا بالألعاب قومنا الأجسام ! .

* * *

ونعود إليك يا أيوب ، فنراك شاكراً ذاكراً ، إذا أعطى الله أو سلب .

* * *

أَحَسِبَ الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمنا ، وهم لا يُفْتنون ؟ .

ولقد فتن الله إبليس ، فما قَوِىَ على الابتلاء والاختبار ، وانكشف وَهَنه وخَوَرُه ، وتوارى فى كبريائه وعناده ، فهلك .

وفتن الأنبياء ، فصبروا ، واعتصموا ، وركنوا إلى شاطىء طاعة الله .

* * *

وفتنك يا أيوب ، فى رزقك الرغيد ، ونِعَمِك الوريفة ، وفى أولادك ، وفى زوجتك ، وفى جسدك .

ابتلاك ، فخلعك من نعيم الرزق ، فرضيت وما تغيرت .

وأمات أولادك ، فتجلدت ، وما كفرت ، وامتحنك بالأمراض والأوجاع ، حتى نفر منك الأهل والأحباب ، فما جزعت ، ولا يئست ، ولا فارت نفسك !

وأقلق زوجتك ، وأضجرها من طول ما شقيت تحتك ، حتى سئمتْ وزهقتْ ، وقلبت لك الكف ، وأدارتْ الظهر ، وأسبلتْ الجفن ، وتأوهتْ

من خدمتك ، وتمنت خلاصاً من حملك ، فخلَفْتَ يا أيوب ، لئن شفاك ربك ، ورد إليك عافيتك لتضربنَّها مئة سَوْط .

وطالت عليك مدة الابتلاء ، ولم يبق إلا الصبر والجلد ، وحسنُ الظن بالله . والتعلق بأهداب رحمة الله ، والاعتقاد فى لطف الله .

* * *

يا رحمةَ الله ! كل هذا وأنت صابر يا أيوب !

وأنت مطمئن شاكر ، على نعمٍ باقية ، لا تزال تغمرك ، نعمة حياةٍ أبقاها الله وكان سهلا أن تموت ، ونعمة كشف بصرك عن خداع المخادعين من الأهل والأصدقاء فى وقت محنتك ، وما كانت تنكشف لولا هذه المحنة ، ونعمة بها عرفت أنك ما تزال فى محبة الله ، والحبيب يمتحن الحبيب ، ونعمة أنك مرقت من الفتنة والافتتان بما كان من أهل وصحة وولد .

ونعمة فوزك برضاك وطيب نفسك فى البلوى ، تسبح بكل هذه النعم فى بحار طاعة الله .

* * *

يا ليتنا يا أيوب ، على شىء من صبرك ، وريح من جلدك ، ومسٍّ من التجائك إلى الله ، ونفحٍ مما تشم من نسائم فضل الله .

* * *

أى أدب أديك يا أيوب ، يوم بلغ الصبر بك مُنتهاه ، والتحمل والتجلد مداه ، ويوم فزعت تضرع إلى الله ، فنسبْتَ هذه البلوى إلى الشيطان ، وما نسبتها إلى الله .

وأيوبَ إذْ نادى ربه : أنى مسَّنِيَ الشيطانُ بنُصْبٍ وعذاب .

ما أصابك من حسنةٍ فمن الله ، وما أصابك من سيئةٍ فمن نفسك .

بشراك يا أيوب ، فرحمة الله وسعت كل شيء ، ورحمة الله قريبٌ من المحسنين .

وإذا العناية لاحظتك عيونها نمْ ، فالمخاوف كلهن أمان

وإذا أَذِنَ الله بالشفاء ، كان كل شيء دواءً ، وكان كل ماء بلسما وشفاء .

وكانت الرحمة طبيباً يوم لا تجد طبيباً ، ويعود كل نافرٍ جافٍ حبيباً ، ولم يكن بالأمس حبيباً .

* * *

يا أيوب ، اضرب الأرض برجلك ، يتفجر الماء من تحتك ، فاشرب وارو ظمأك واغسل جسدك ، وامسح مرضك ، والبَس ثوب عافيتك ، وتحلَّ بحلى شبابك ، واستعدّ نضارتك وقوتك ، واخرج على قومك سليما معافى زينةً للناظرين .

* * *

ويا أيوب ، هذا رزقك ونعيمك . وهؤلاء أهلك ، وقد أصلحنا لك زوجك ، ووهبنا لك أولاداً عوضا من أولادك ، ومِثلَهم معهم ، لتقر عينك ويرتاح فؤادك ، وتطيب نفسك .

فرحمتنا تشملك ، وكل ذى عقلٍ يتذكر ، ويعتبر بك .

وهذه الزوجة ، التى صابرتك ، وآستك وواستك ، وأفرغت جهدها فى تطبيبك ، واستهلكت طاقتها فى تمريضك ، لم تشكُ ولم تتبرَّم ، إلا بعد أن نفد صبرها ووهن عزمها وليس عزمها مثل عزمك ، ولا صبرها كصبرك .

وهى قدمت لك الكثير ، وتخاذلت فى القليل ، خلطوا عملا صالحاً ، وآخر سيئا ، عسى الله أن يتوب عليهم .

وقد تبنا عليها يا أيوب ، أفلا تتوب عليها أنت ؟ وتغفر لها ؟

وفداء ليمينك يوم حلفت عليها ، أن تضربها مئةَ سَوْطٍ ، إنْ شفيناك وعافيناك ، وتحللا من قسمك ، قد هوَّنَّا عليك ، أن تأخذ حزمةً من أعشاب رطيبة ، فيها مئة عود ، وتضربها بها ضربة واحدة ، لينة هيِّنة ، فترطب حقدك ، وتصلح زوجك ، وتدفىء حبك ، وتقر عينك .

وخذْ بيدك ضِغثاً ، فاضربْ به ، ولا تحنث .

إنا وجدناه صابراً ، نعم العبد ، إنه أواب .

يونس

فى ظلمات ثلاث ، ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، جأر يونس رافعا صوته ، بالدعاء : لا إله إلا أنت ، سبحانك ، إنى كنت من الظالمين .

* * *

دعوة المكروب ، من دعا بها الله ، فى إخلاص ، فك كُربته .

* * *

دعا يونس ربه ، حين وقع فى هذه الظلمات ، جزاء وعقوبة وتأديباً ، وترويضاً لنفسه ، وتطهيراً لها من نزوة شيطانية سبقت إلى نفسه ، ولظن سرى فى وهمه ، أنه آمِنٌ من حساب الله ، يوم تعجَّل على قومه ، وشدَّ عليهم فى دعوته ، مبالغة منه فى الحرص على إيمانهم وطاعتهم ، ولأنه غضب عليهم ، وغاضبهم ، ولأنه بادر بهجرهم ، والمهاجرة من بينهم ، من قبل أن يأذن الله له بالمهاجرة ، وخُلِقَ الإنسان عجولا .

* * *

وأى استعجال وإعنات ، وأى إثارة واستفزاز ، أكثر مما فعل يونس بقومه ؟ يوم دعاهم إلى عبادة الله ، والتخلى عن عبادة الأصنام ، ويوم هددهم بالخراب والدمار وسوء العذاب ، إن لم يخلعوا دين الوثنية ، ويلبسوا فى التوِّ والساعة ثياب دينه .

* * *

وما هكذا تكون الدعوات ، ولا بهذا العنف تُساس الناس ، ولا بهذه السرعة السريعة ، يتخلى الإنسان عن دينه ومبدئه .

والدعوة الراسخة تقوم بالتربية والترويض والإقناع ، وبسط جناح اللين والرحمة .

* * *

وما هكذا أخذ نوح قومه ، فقد مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، وما آمنوا ولا اهتدوا ، بل لم يؤمن ولده بدين أبيه .

* * *

شرط الدعوة ، وواجب الداعى ، أن يتسع صدره للمعارضة ، وألا يغضب إذا نفر منه القوم ومن دينه الجديد ، وإذا حنُّوا إلى ما سرى فى دمائهم ، مما ورثوه عن الأجداد .

ثم تأليف النفوس ، وتسرب الدعوة إلى القلوب ، واستمالة العواطف .

لقد فاتك كل هذا ، يأيها النبى يونس .

* * *

فقلت ، وأنذرت ، وهددت ، وتعجلت ، فنفضت يدك ، وسحبت نفسك وتخليت عن متابعة رسالتك ، وهجرت القوم ، وتركتهم حائرين .

* * *

لا يجتمع نجاح فى دعوة ، وفظاظة وغلظة ، ولا تتأتى استمالة قلوب لدين إذا كانت سياط العذاب ، مسلطة فوق الرءوس .

بل إن العُنْجُهِيَّة فى الدعوة ، سبب الانفضاض عنها ، والنفرة منها ،

ومقاومتها ، ولو كنت فظاً غليظ القلب ، لانفضوا من حولك .

* * *

ترك يونس قومه حيارى ، وركب البحر ليذهب إلى بعيد ، غاضبا منهم ، فهبت عليه الريح ، وعنُفت العاصفة ، ومالت السفينة ، وأوشك الغَرق ، وتخفف أهلها ، فرموا متاعهم فى البحر ، ثم ضربوا السهام واقترعوا ، فمن أصابته القرعة ، رمى نفسه فى البحر ليخف عن إخوانه ، وأصابته القرعة مرة ، ومرة ، ومرة .

وكان لابد أن يلقى نفسه فى البحر ، فى الخضم الهائج المائج .

وكأنه كان على ميعاد مع الحوت ، فالتقمه وابتلعه ، وضغطه بين فكيه ، وقذفه فى جوفه .

فاجتمعت عليه الظلمات الثلاث ، ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت .

فأى ضيق ، وأى كربة ، من هاتيك الظلمات الثلاث ؟

* * *

وعليك يا يونس أن تجأر بالدعاء ، وأن تفزع بالضراعة ، وأن تحسّ خطر الهلاك ، وأن تخاف بعد أمن ، وتفيق بعد غفوة ، وأن تدرك مدى الاستخفاف بأمر القوم .

* * *

ادع ربك يا يونس والإنسان لا يعرف ربه ، إلا فى وقت الغَرَق .

وذا النون — والنون الحوت الكبير — إذ ذهب مُغاضِباً ، فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى فى الظلمات ، أنْ لا إله إلا أنت ، سبحانك فى مَلكوتك وجَبَروتك ورَهَبوتك ، إنى كنت من الظالمين .

ظلمت نفسى ، وظلمت قومى ، وظلمت رسالتى .

فمن ظلمى لثلاث ، أوقعنى ربى فى ظلمات ثلاث .

فيارب أدركنى بثلاث : التوبة ، والمغفرة ، والنجاة .

* * *

وكانت رحمة الله ، فاستجاب دعاه ، ونجاه ، فأهاج بطن الحوت ، ومَغَصَ أمعاءه ، وضيَّق أحشاءه ، فتلوَّى وتقبَّض ، وقذفه من جوفه ، بعيداً على الشاطىء ، فى العراء ، وهو سقيم .

وشملته العناية الربانية ، فأنبت الله بجواره شجرة من يقطين ، وسواء أكان اليقطين شجر القرع أم الموز ، فإنها شجرة غطته بأوراقها ، وأظلته بأغصانها ، وغذَّته بثمارها .

فوقته وحفظته من ثلاث :

من الطير والذباب حتى لا تنهشه وهو طريح لا حراك به .

ومن الشمس حتى لا تأخذه ضربتها .

ومن الجوع حتى لا يهلك فيموت .

* * *

قم يا يونس ، فارجع إلى قومك ، إلى هؤلاء الناس ، الذين أرسل عليهم الغمام فأظلم ديارهم ، فأسرعوا إلى الله ، خائفين وجلين ، تائبين مؤمنين .

ويا يونس ، لو رأيتهم ، وقد خرجوا إلى الخلاء ، بأنفسهم وأهليهم وماشيتهم ، وقد فصلوا الرجال عن الزوجات ، والأطفال عن الأمهات ، وصغار

الحيوان عن المرضعات ، وقد ارتفعت أصوات الناس بالدعاء ، وأصوات الحيوانات البكماء .

وياليتك يا يونس رأيتهم ، وهم جميعاً يعلنون التوبة والاستسلام ، وقد آمنوا بربهم ، فعفا الله عنهم ، وكشف العذاب الأليم . ومتّعهم إلى نهاية أعمارهم .

فلولا كانت قرية آمنت ، فنفعها إيمانها ، إلا قوم يونس ، لما آمنوا ، كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ومتعناهم إلى حين .

* * *

قم يا يونس ، فعُدْ إلى قومك ، مئة ألف أو يزيدون .

عُدْ إليهم ، فقد تابوا وآمنوا .

فكشف الله عنهم الغُمَّة ، كما كشف عنك غَمَّ الظلمات .

مريم . زكريا . يحيى

فى سورة آل عمران الرهيبة .

إنَّ الله اصطفى آدم ونوحاً ، وآل إبراهيم ، وآل عمران على العالمين .

إذ قالت امرأة عمران : ربِّ إنى نذرت لك ما فى بطنى مُحَرَّرا .

نذرتْ ما فى بطنها ، إن كان ولدا ذكرا ، أن تهبه لبيت المقدس ، يخدم فيه ، وكان ذلك ، أكرم قربان يتقرب به العباد إلى الله .

وكان دعاؤها رجاء وأملا فى الله ، أن يرزقها ولدا ، فما كان يوهب لخدمة المسجد إلا الغلمان .

وما كان لها ولد ، وحرمان الولد ، يُعطِّش العاطفة ، ويؤجِّج الشوق إليه ، ويثير اللهفة عليه ، والرغبة فى الخلف بأى ثمن ، حتى لو وهبته للحرب أو للمسجد .

وتلك أمانى المحروم وآماله ، إذا أزعجه شبح اليأس ، وقرَّحتْ جفونه أطياف القنوط .

ربِّ . إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا ، أحرره لك يا ربى من كل مشاغل الدنيا . فتقبلْ دعائى ، إنك تسمعنى ، وتعلم همس خاطرى ، ومناجاة آمال نفسى !

* * *

فلما وضعتها ، قالت : ربِّ ، إنى وضعتها أنثى .

وكان فى حديثها إلى الله ، لغة التحسُّر ، وريح الفجْعة فى ولادة البنت . والناس من قديم لا يبشون فى وجه البنات .

وإذا بُشر أحدهم بالأنثى ، ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء مابشر به ، أيمسكه على هون ؟ أم يدسه فى التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون .

والبنت من يوم أن تخرج من ظلام بطن أمها ، تلقاها الوجوه عابسة ، والابتسامة فاترة ، والحرارة هادئة ، والقلوب كسيرة .

* * *

وأليس الله يعلم ، يا امرأة عمران ، أنها أنثى ؟ وأنْ ليس الذكر كالأنثى ؟ ويعلم أن القلوب معلقة بحبال الآمال فى ولد ، يكون السند ، ويشد العضد ، ويقوى الجلد ؟

ويعلم أن البنت عبء ومسئولية ، فى ولادتها ، وتربيتها ، ورعايتها ، وحياطتها ، والتحرى فى اختيار زوجها ، وتجهيزها ، وزفافها ، وتأمين راحتها .

ويعلم ، ونعوذ بالله ، أنها إنْ ساء حظها ، فزلّتْ قدمها ، وانكشف سترها وفاحت رائحتها ، وانصرف الأزواج عنها ، كانت سُبَّةً وعارا على أهلها والله أعلم بما وضعت .

* * *

يا امرأة عمران ، لا تحزنى ، فقد قبلنا نذرك ، وتقبلنا بنتك ، وأضفينا على وجهها جمالا ، فادفعيها إلى بيت المقدس ، وفاء بنذرك .

فلفتها فى ثياب ، ودفعتها ، إلى سَدَنة البيت ، حُرَّاسِه المنقطعين لخدمته ورعايته ، وقالت : دونكم هذه النذيرة ، بنت إمامكم عمران .

وتنافس السدنة فيها ، أيهم يكفل الطفلة النذيرة مريم ابنة عمران . واختصموا فى المنافسة ، واقترعوا عليها ، فألقوا أقلامهم فى البحر ، فمن طفا قلمه على الماء فاز بها .

وفاز بالقرعة عليها ، النبى زكريا ، زوج خالتها ، فتولاها وكفلها ، وبنى لها غرفة مشرفة فى المحراب ، والمحراب مكان الإمام فى المصلى ، وهو أقدس مكان فيه ، فإنه أرهب مكان يحارب فيه الشيطان .

* * *

وما كان يدخل عليها المحراب ، غير زكريا ، وكلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا فاكهة الصيف يجدها عندها فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء يجدها عندها فى الصيف .

فأخذه العجب ، من أمر هذه الفتاة ، وسألها : أنَّى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله .

فإن كنت تظن أنك ترزقنى بما تأتينى من طعام وشراب ، فإن ماعند الله خير مما عندك . إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

سبحانك ربى ، قدرتُك حيَّرت العقول ، هذه بُنية حبيسة ، لا حول

لها ولا طول ولا زائر ولا عابر ، فإذا بين يديها رزقٌ خير رزق ، وجودٌ من عدم ، وأملٌ من يأس ، وهِبةٌ وما قدمتْ إليك من قربان !

أفلا يُطمعنى ، ماأرى ، أنِ أضرع إليك ، وأسألك أن تهب لى ذُرية طيبه ؟ إنك سميع الدعاء .

يارب : إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك ربى شقيا . وإنى خِفت الموالى من ورائى ، وكانت امرأتى عاقرا ، فهب لى من لدنك وليا ، يرثنى ، ويرث من آل يعقوب ، واجعله ربى رضيا .

ربى . لاتذرْنى فردًا ، وأنت خير الوارثين .

تلك صلاة ، والصلاة دعاء ، وصلاةٌ بعد سَبْحةٍ طويلة ، فى تأملات وتسبيحات ، فتجلى نور الله ، فاستجاب دعاه ، ونادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب : أن الله يبشرك بيحيى ، مصدقاً بكلمةٍ من الله ، وسيدا ، وحَصُورا ، ونبيًّا من الصالحين .

* * *

ولدٌ يازكريا ، ولا كالأولاد ، مؤمن ، يصدق بالله ، وكلماته ، وآياته البينات على جليل حكمته ، وبديع قدرته .

ولدٌ يسود قومه ، ويعصم من الذنوب نفسه ، ونبىٌ تشرفه رسالته ، وصالحٌ مصلحٌ فى مجتمعه ، وهديةُ الله إليك يازكريا ، والحبيب يُهدى إلى الحبيب .

* * *

ويخر زكريا ساجدا شاكرا ، غارقا فى بحار فضل الله ، متعجباً مما قضى

الله ، فهو قد شاخ وقارب المئة ، وقد انحنى ظهره ، وجف عوده ، وشاخت زوجته ، وضمُرت وعقِمَتْ ، ويَبِسَتْ عظامها ، فمن أين يأتينا الولد يا ربى ؟!

* * *

لا تعجبْ يا زكريا ، ففضل الله واسع ، ورحمته تجبر المكسور ، وتحيي الأمل ، وأمره نافذ يفعل ما يشاء ، إذا قضى أمراً ، فإنما يقول له : كن فيكون .

ويشتد به العجب ، وتبلبله الحيرة ، ويكاد لا يصدق ، فيحبُّ أن يستوثق ، وأن يشد يديه على تلك الأُمنيَّة ، فيسأل ربه : يا ربى . اجعلْ لى آية ، تطمئن بها نفسى ، ويسكن قلبى ، ويدفأ بالفرحة جسمى ، ويجرى دمى ، وأشعُرُ بحياتى وحيويتى !

* * *

قال : آيتك ، أن يصمت لسانك ، ويسكت بيانك ، وتعيا عن الكلام ثلاثة أيام ، لا تستطيع أن تتفاهم مع الناس ، إلا بالإشارة والرموز .

* * *

فخرج على قومه من المحراب ، فأوحى إليهم ، وأشار عليهم ، أن سبحوا بكرة وعشيا . يا زكريا : إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعلْ له من قبلُ سَمِيًّا ، فاذكرْ ربك كثيرا ، وسبحْ بالعشِيِّ والإبكار .

* * *

وصدق الله العظيم ، فكَبِرَ يحيى ، وقرَّتْ به عين زكريا ، واكتمل عقله فى صباه ، واصطفاه الله نبيا فى شبابه ، وفهم التوراة ، وأحكم فهمها ، وولاه الله أمر الدين ، والقيام على هداية الناس وهو فتى ، وأفعم الله صدره بالحنان ،

فكان رءوفا رحيما ، رقيق العاطفة ، لطيف الإحساس ، وزكتْ نفسه ، وتطهرت روحه من درن الأرجاس . وراض نفسه على تقوى الله ، فما جرؤ على معصية ، ولا أعان عاصياً ، ولا جامل فاسقاً .

وأنعم الله عليه بالبر بوالديه يطيع ويحنو ، ويُفرح ويُسعد ، ويشرح الفؤاد ، ويجدد الأمل ، ويحمل عبئاً كان يشغل بال أبيه ، وإنى خفت الموالى من ورائى . وخشيت ألا ينهضوا بعبئى ويتموا رسالتى ، فهب لى من لدنك وليا .

ونزع الله من طبيعته غريزة الطغيان والجبروت ، وأغمض عينيه عن العناد والعصيان . وسلَّم عليه الله ، وسلّمه من كل رذيلة ، وزيَّنه وحلاّه بكل فضيلة ، وحفظه من مس الشيطان يوم ولد ، وبارك عليه طول عمره وسلمه من الفزع والانزعاج وسوء الخاتمة يوم مات . ويُسلِّم عليه يوم البعث ، ويُسلمه من رجفة الحشر ، وهول الموقف ، ومن الخزى الذى تضيق به صدور المجرمين ، يوم يُعرضون على رب العالمين .

يا يحيى . خذ الكتاب بقوة ، وآتيناه الحكم صبيا ، وحناناً من لدُنّا ، وزكاة ، وكان تقيا ، وبرًّا بوالديه ، ولم يكن جبارا شقيا ، والسلام عليه يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حيًّا .

* * *

وقاتلكم الله يا بنى إسرائيل .

أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم ! استكبرتم ؟

ففريقا كذبتم ، وفريقا تقتلون !

قتلتم يحيي ، وخَرَزْتم عنقه ، يوم صاح فيكم صيحة الحق ، ورفع صوته مستنكراً أن يتزوج الرجل بنت أخيه ، مهما كانت مليحة ، ومهما كان موفور الغنى ، ويوم فَرَضَت عليه هذه المليحة الجميلة ، أن يكون مهرها رأس يحيي ، الذى عارض زواجها من عمها ، وكشف خطيئتهما ، وفضح سرهما .

فجزّ الطاغية العاتى رأس يحيي .

ورماه تحت قدميها . مهراً لها !

قاتلكم الله ! !

البعث

وقالت اليهود عُزَيْرٌ ابنُ الله ، وقالت النصارى المسيح ابنُ الله ، ذلك قولُهم بأفواههم ، يُضاهئون قولَ الذين كفروا من قبلُ ، قاتلهم الله .

* * *

أوْ كالذى مرَّ على قرية ، وهى خاويةٌ على عروشها ، قال : أنَّى يُحيي هذه الله بعد موتها ؟ فأماته الله مئةَ عام ، ثم بعثه ، قال : كم لبثتَ ؟ قال لبثتُ يوما أو بعض يوم . قال : بل لبثتَ مئةَ عام ، فانظر إلى طعامِك وشرابك لم يَتسَنَّهْ ، وانظرْ إلى حمارك ، ولنجعلك آية للناس ، وانظر إلى العظام كيف نُنْشِزُهَا ، ثم نكسوها لحما ؟ فلما تبين له ، قال : أعلَمُ أن الله على كل شىء قدير .

* * *

جاءت الأديان كلها تؤيد عقيدة البعث ، وأن هنالك حياةً أخرى بعد الموت . وتخلَّف عن هذه العقيدة آراء كثيرة ، فبعضٌ يُنْكِرُها ويستبعدها . وبعضٌ يصدِّق ، ولكنه متحيِّر فى كيف يكون البعث من القبور ؟

وناس يقولون : إن حياتنا هذه من فِعْل الطبيعة ، وما حياتُنا إلا مِنْ أرحامٍ تدفع ، وأرض تبلع ، ولا شىءَ بعد ذلك .

وناس اختلفوا فى البعث ، فقال أهل السنَّة : نُحشرُ بأجسادنا وأرواحنا . وتصدَّى علماء الطبيعة لهؤلاء الناس ، وقالوا : إن المادة لا تفنى ،

ولا تنقص ولا تزيد . وأن أجسام الأجيال ، تتداخل فى تركيب أجسام الأجيال .

فكيف تعذَّبُ الذرة من جسم العاصى ، إذا مات ، وتداخلتْ فى جسم المؤمن الصالح ؟

وناسٌ قالوا إن البعث بالأرواح ، فهى تنعمُ وتشقى ، والجسد وِعاء دنيوى دانى .

وصراع بين الآراء فى الجنة والنار ، وهل هما موجودتان الآن ؟ أم سيخلقهما الله يوم القيامة ؟

جنة عرضها السموات والأرض . جنة عرضها كعرض السماء والأرض .

وإذا كانتا موجودتين الآن ، فهل نحن فى حياتنا هذه نسعد ونشقى فى جنة ونار ؟ وكثير . وكثير .

كل هذا ، مبعثه عقيدة البعث بعد الموت ، والنشور من القبور .

وهذه العقيدة ، نؤمن بها ، ونُرسِّخها فى قلوبنا ، سماعاً من الأديان .

فهى غيب ، والغيب لله .

وهذه العقيدة ، حيَّرت سيدنا إبراهيم ، خليل الله ، إذ قال :

ربِّ ، أرنى كيف تحيي الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى . ولكن ليطمئن قلبى !

وهذه العقيدة ، حيَّرت صاحِبَنا هذا ، الذى مرَّ على قرية وهى خاوية على عروشها ، قال : أنَّى يحيي هذه الله بعد موتها ؟

وسواء أكان هو عُزَيْرٌ ، الذى قالت عنه اليهود : إنه ابن الله .

أم كان الخضر صاحب موسى عليه السلام ، أم كان نبيا ، أم ملكا ، هذا ، أو ذاك ، فهو بلا شك إنسان من الناس ، مرَّ على بيت المقدس ، بعد أن خرَّبَها بختنصَّر .

فأزعجه منظر الخراب والتدمير ، وحزَّ فى نفسه ، أن يأتى الخراب فى لحظات ، على ما يبذله الناس فى التعمير ، مئات السنين .

وعملت فى رأسه نظرية تداعى المعانى ، وتزاحمت الخواطر والأطياف ، وجرَّتْ فكرةٌ فكرة وهذه استتبعت أفكاراً وأفكاراً ، حتى وصل فى تفكيره إلى الخلائق من إنس ومن جان . فى أيام آدم ، ومن بعده نوح ، وإبرهيم ويعقوب ، وداود وسليمان ؛ وفى الأجيال والأجيال مدى عمر الزمان ؛ وإلى أين يذهبون ! وكيف يبعثون ويحشرون !

وما الموقف العظيم الذى يضم هؤلاء وهؤلاء ؟

ثم التفت إلى نفسه ؛ وسألها : أليست هذه الظاهرة ؛ حلقة من سلسلة الحياة ؟

والرجل وحده ، واقف يشرف على هذا الخراب فى القرية ، ويكدُّ ذهنه فى التفكير ، وفى التقدير ، أيؤول العالم كله فى آخر الشوط إلى مثل ما أرى ؟ وتطاول خياله ، أن يتصور قدرة الله التى تحيط بهذا العالم الخراب يوم القيامة .

فأرهقه التفكير ؛ فنزل عن حماره ، يمسح عرقه ، ويستروح فى ظل جدار فأخذته سِنَةٌ من النوم فنام ، وأماته الله ، فنام مئة عام !

وبعد مئة عام ، بعثه الله ، وأيقظه فصحا ، وتلفت ، فوجد طعامه وشرابه لم يتغيَّر ، ونظر فى جسمه فوجده سليما معافى لم يمسسه سوء .

فناداه مَلَكٌ من ملائكة الله : كم لبثتَ فى نومك هذا !

ففتح عينيه ، وتذكر أنه كان يناجى نفسه على أطلال هذه القريةفى ضحوه النهار ، وهو الآن فى وقت الأصيل، فقال لبثت يوماً ، أو بعض يوم .

قال له الملك : لا يا هذا ، بل لبثت مئة عام .

فأخذه العجب من كلام الملك ، وكاد يعلن أن هذا قول يحتاج إلى دليل وبرهان . فعاجله الملك ، وأمره أن ينظر ثلاث نظرات :

أولاها أن تنظر فى طعامك وشرابك ، فإنه لم يتغير ، والتحفظ عليه بقدرة الله . والثانية أن تنظر إلى حمارك ، كيف مات ، وبَلِيَ لحمه ، وتفكك عظمه .

وأننا سنجعلك آية ناطقة على قدرتنا ، وليعلم الناس حين يعرفون خبرك أننا قادرون على بعثهم كما بعثناك .

والثالثة : أن تنظر إلى هذه العظام ، كيف نُنْشِزُها ، وننشُرُها ، ونعيد تركيبها .

وكيف نكسوها لحما ، فعاد الحمار كأول مابدا ، فركبه صاحبه ، ودخل المدينة ، ودخل بيته ، فوجد ذريته وأحفاده شيوخاً وهو على حاله لم تتقدم به سنُّه .

فأنكروه ، وعجبوا أن يعود أبوهم على حاله يوم غاب ، لم يتغيَّر شكله ، ولم يتقوس ظهره ، وقد حسبوه مات منذ غاب ، ونسيه الناس ، ووفات مئة عام على انقطاعه . فكيف به يعود ؟ إن هذا لشيء عجيب .

وسألوه ، وسألوه ، فحدثهم حديثاً عمره مئة عام .

وأسمعهم التوراة ، وما كان يحفظها غيره .

ودلَّهم على أسرار بنيه وبنيهم ، ومعالم فى دارهم ، ما يكشف سرَّها غيره .

فآمنوا ببعثه ، وآمنوا بأن الله قادر على أن يبعث الموتى .

فلما تبين له ، قال : اعلمى يا نفسى ، فأنا أعلم أن الله على كل شيء قدير .

ومن أجل هذا ، حدثتْ رجَّةٌ فى الناس ، وهزَّةٌ فى عقائدهم ، وأخذتهم رجْفَةٌ من قدرة الله .

وبنو إسرائيل ، قوم متطرِّفون .

فإن آمنوا أغرقوا فى الإيمان . وإنْ كفروا ، فجروا ، وطَغَوْا وفسقوا وأَسَفُّوا فى العصيان .

* * *

وتلك هى الطبائع الرجراجة ، كالعجينة تشكِّلها ظروفها ، فمرة فارس ، ومرة حصان وهم كذلك ، وحين هالهم بعث صاحبهم عزير بعد أن أماته الله مئة عام ، قالوا : لابد أن يكون مكرماً عند الله ، بل لابد أن يكون ابنَ الله .

وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله :

سبحانه : الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد .